

فَضيلَةٌ رائِعَةٌ في
مَجْموعَةٍ قَصَصِيَّةٍ لِلأَطْفالِ

البَذْلُ وَالعَطَاءُ

GIVING

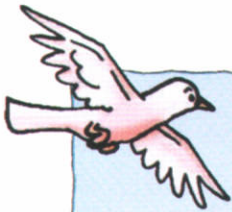
ماري جوزيف





فَضِيْلَةٌ رَائِعَةٌ فِي مَجْمُوْعَةٍ قَصَصِيَّةٍ لِلْأَطْفَالِ

البَذْلُ وَالعَطَاءُ



صَدِيْقُ (نَجِيْب)

تَحْكِي هَذِهِ القِصَّةُ حِكَايَةَ العَجُوْزِ البَخِيْلِ، الَّذِي عَرَفَ أَخِيْراً أَنَّ السَّعَادَةَ تَكْمُنُ فِي إِسْعَادِ الآخَرِيْنَ.

شَمْعَدَانُ المَطْرَانِ

وَهِيَ إِحْدَى القَصَصِ الوَارِدَةِ فِي رِوَايَةِ «البُؤَسَاءِ» لِـ(فيكتور هوغو)، وَتَعْكِسُ إِحْسَاسَهُ بِالعَدَالَةِ، وَتَعَاطُفَهُ مَعَ مُعَانَاةِ البَشَرِ.

خِدْمَةُ الحُبِّ

يَتَحَدَّثُ الكَاتِبُ مِنْ خِلَالِ تِلْكَ القِصَّةِ المُؤَثِّرَةِ عَنِ العَطَاءِ وَالبَذْلِ الَّذِي قَدَّمَهُ شَخْصَانِ بَعْضُهُمَا لِبَعْضٍ تَعْبِيْراً عَنْ حُبِّهِمَا الصَّادِقِ.

(إليزابيث فراي)

وَهِيَ مِنْ دُعَاةِ الإِصْلَاحِ فِي (بَرِيْطَانِيَا)، كَانَتْ مِنْ أَوَائِلِ الَّذِيْنَ أَصَرُّوا عَلَى مُسَاعَدَةِ السُّجَنَاءِ بَدَلاً مِنْ إِنْزَالِ العُقُوْبَةِ بِهِمْ فِي سَبِيْلِ إِصْلَاحِهِمْ.

قَرَارُ (جُمَانَة)

تَتَحَدَّثُ هَذِهِ القِصَّةُ عَنْ وَصِيَّةِ المَوْتِ الَّتِي أَوْصَتْ بِهَا فَتَاةٌ صَغِيْرَةٌ، وَتَتَضَمَّنُ تَقْدِيْمَ المُسَاعَدَةِ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الأَطْفَالِ.

حَيْثُ نَجِدُ المَحَبَّةَ نَلْقَى اللهَ

وَهُنَا يَتَحَدَّثُ (ليو تولستوي) أَنَّ كُلَّ مَا نُقَدِّمُهُ لِلنَّاسِ مِنْ مَعْرُوْفٍ يَصِلُ إِلَى اللهِ.

حِكَايَةُ الذِّئْبِ مَعَ طَائِرِ الكُرْكِيِّ

تُعَلِّمُنَا هَذِهِ القِصَّةُ الخُرَافِيَّةُ أَنْ نُعْطِيَ دُوْنَ أَنْ نَنْتَظِرَ المُقَابِلَ.

صَدِيْقُ (نَجِيْبٍ)

أَصْبَحَ أَهْلُ القَرْيَةِ يَتَنَدَّرُوْنَ بِقِصَّةِ (نَجِيْبٍ) بَعْدَ انْضِمَامِهِ إِلَى حَمْلَةِ الإِنْقَاذِ الَّتِي كَانَتْ تَضُمُّ مَجْمُوْعَةً مِنَ الأَشْخَاصِ الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ عَلَى جَمْعِ المَالِ لِمُسَاعَدَةِ الفُقَرَاءِ، فَقَدْ كَانَ (نَجِيْبٌ) عَجُوْزاً غَرِيْبَ الأَطْوَارِ، وَلَمْ يَكُنْ يُحِبُّ التَّوَاصُلَ مَعَ النَّاسِ كَثِيْراً، وَكَانَ يَعِيْشُ عَلَى ضِفَةِ النَّهْرِ فِي كُوْخٍ مَصْنُوْعٍ مِنْ سَقَطِ المَتَاعِ، وَمِزَقِ القماأحمد مَعَ قِطَعِ الصَّفِيْحِ، وَلَمْ يَكُنْ يَجْرُؤُ أَحَدٌ -حَتَّى أَشْجَعُ الصِّبْيَةِ- عَلَى الاِقْتِرَابِ مِنْ مُحِيْطِ سَكَنِهِ، بَلْ كَانُوا يُحَافِظُوْنَ عَلَى مَسَافَةِ أَمَانٍ اِتِّقَاءً لِشَرِّهِ، فَلَمْ يَكُنْ يُحِبُّ الزُّوَّارَ، وَكَانَ يَبْتَعِدُ عَنْ أَعْيُنِ الفُضُوْلِيِّيْنَ، مُعَبِّراً بِنَظْرَتِهِ الحَادَّةِ عَنْ عَدَمِ تَرْحِيْبِهِ بِأَيِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ.





وَهَذَا مَا جَعَلَهُمْ جَمِيعاً يَظُنُّوْنَ أَنَّهُ شَخْصٌ بَخِيْلٌ وَمَجْنُوْنٌ، يَمْلِكُ أَمْوَالاً كَثِيْرَةً، وَذَهَباً وَكُنُوْزاً دَفَنَهَا قُرْبَ كُوْخِه.

وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ يُؤَدِّي أَعْمَالاً غَرِيْبَةً أَيْضاً، إِذْ كَانَ يُزِيْلُ الأَعْشَابَ الضَّارَّةَ مِنَ الحَدَائِقِ وَالبَسَاتِيْنِ، كَمَا كَانَ يُزَاوِلُ مِهْنَةَ تَبْيِيْضِ الجُدْرَانِ، إِضَافَةً إِلَى اعْتِيَادِهِ عَلَى جَمْعِ القِطَعِ المَعْدِنِيَّةِ وَالقَوَارِيْرِ الفَارِغَةِ مِنْ حَاوِيَاتِ القُمَامَةِ المُنْتَشِرَةِ فِي الشَّوَارِعِ وَالأَزِقَّةِ.

وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي المَاطِرَةِ، بَيْنَمَا كَانَتْ حَمْلَةُ الإِنْقَاذِ تَعْقِدُ اجْتِمَاعاً لَهَا حَضَرَهُ عَدَدٌ قَلِيْلٌ مِنَ الأَعْضَاءِ، ظَهَرَ (نَجِيْبٌ)، وَطَلَبَ إِذْناً لِحُضُوْرِ الاجْتِمَاعِ، فَرَحَّبَ بِهِ قَائِدُ الحَمْلَةِ، وَدَعَاهُ إِلَى الدُّخُوْلِ بِكُلِّ سُرُوْرٍ.

وَقَدْ أُوْكِلَتْ مُهِمَّةُ قَرْعِ الطَّبْلِ إِلَى (نَجِيْبٍ)، الَّذِي حَاوَلَ جَاهِداً أَنْ يَكْتُمَ مَظَاهِرَ سَعَادَتِهِ بِهَذِهِ المُهِمَّةِ؛ لِيَبْدُوَ بِمَظْهَرِ المُتَجَهِّمِ الَّذِي لَا يَكْتَرِثُ بِهَذِهِ الأُمُوْرِ، وَلَا تَعْنِي لَهُ شَيْئاً.

وَمُنْذُ ذَلِكَ الوَقْتِ أَصْبَحَ (نَجِيْبٌ) يَتَعَثَّرُ بِطَبْلِهِ كُلَّمَا خَرَجَ أَعْضَاءُ حَمْلَةِ الإِنْقَاذِ مِنْ مَقَرِّهِمْ، وَلَا يَكُفُّ عَنْ قَرْعِهِ حَتَّى يَسْمَعَ كُلُّ مَنْ فِي القَرْيَةِ قَرْعَ الطَّبْلِ العَنِيْفَ، وَكَانَ (نَجِيْبٌ) يَسْعَى جَاهِداً لِمُتَابَعَةِ اللَّحْنِ مَعَ غَيْرِهِ مِنْ جَوْقَةِ العَازِفِيْنَ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَجُرُّ قَدَمَيْهِ، وَيَتَرَنَّحُ، وَيَتَمَايَلُ عَلَى الجَانِبَيْنِ كَالدُّبِّ تَمَاماً.

وَلَمْ يَكُنْ مَنْظَرُهُ جَمِيْلاً أَبَداً، فَقَدْ كَانَ يَنْحَنِي لِيَتَدَلَّى وَجْهُهُ المُجَعَّدُ عَلَى أَحَدِ جَانِبَيْهِ، وَيَتَغَضَّنُ كَأَيِّ ثَمَرَةِ جَوْزٍ يَابِسَةٍ، أَمَّا قَمِيْصُهُ الأَحْمَرُ الَّذِي يُبَيِّنُ أَنَّهُ عُضْوٌ فِي حَمْلَةِ الإِنْقَاذِ فَلَمْ يَكُنْ مُرَتَّباً أَوْ مَكْوِيّاً، وَكَانَتْ طَاقِيَّتُهُ البُنِّيَّةُ القَدِيْمَةُ تُغَطِّي إِحْدَى عَيْنَيْهِ دَوْماً.

وَكَثِيْراً مَا حَاوَلَ الصِّبْيَةُ فِي القَرْيَةِ مُضَايَقَةَ (نَجِيْبٍ) وَاسْتِفْزَازَهُ دَائِماً، إِلَّا أَنَّ العَجُوْزَ لَمْ يَكُنْ يُلْقِي لَهُمْ بَالاً، فَلَمْ يَكُنْ يَتَحَدَّثُ إِلَى أَيِّ أَحَدٍ إِلَّا نَادِراً، مَا عَدَا مَنْ كَانَ يُحَيِّيْهِمْ بِفَظَاظَةٍ فِي العَرْضِ المُوْسِيْقِيِّ خِلَالَ مَجِيْئِهِ وَذَهَابِهِ.

وَكَانَ قَائِدُ المَجْمُوْعَةِ قَدِ الْتَقَى بِكَثِيْرٍ مِنَ الشَّخْصِيَّاتِ الغَرِيْبَةِ فِي حَيَاتِهِ،

وَكَانَ قَدْ تَوَصَّلَ إِلَى طَرِيْقَةٍ تُسَاعِدُهُ فِي التَّعَامُلِ مَعَ تِلْكَ الشَّخْصِيَّاتِ، وَهَذَا مَا دَفَعَ ذَلِكَ القَائِدَ إِلَى دِرَاسَةِ شَخْصِيَّةِ (نَجِيْبٍ) بَعْضَ الوَقْتِ، وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي قَرَّرَ أَنْ يَتْبَعَ (نَجِيْباً) إِلَى الخَارِجِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِهِ وَسَأَلَهُ: "هَلْ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ يَا صَدِيْقِي؟"

فَأَجَابَهُ (نَجِيْبٌ): "لَا يَا سَيِّدُ، كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أَسْأَلَكَ: هَلْ يَقْبَلُ اللهُ تَوْبَةَ العَبْدِ إِنْ أَتَاهُ مُتَأَخِّراً؟ كَأَنْ يَعُوْدَ ذَلِكَ الشَّخْصُ مَثَلاً إِلَى اللهِ بَعْدَ أَنْ يَفْقِدَ مَنْزِلَهُ، وَمُمْتَلَكَاتِهِ، وَأَصْدِقَاءَهُ، وَصِحَّتَهُ أَيْضاً؟"

رَدَّ القَائِدُ: "أَجَلْ، بِالتَّأْكِيْدِ سَيَتَقَبَّلُهُ، إِذْ كُلَّمَا كَانَ فَقْرُ الإِنْسَانِ أَكْبَرَ، وَتَعَاسَتُهُ أَعْظَمَ، وَحُظُوْظُهُ أَقَلَّ؛ أَصْبَحَتْ مَحَبَّةُ اللهِ وَغُفْرَانُهُ وَتَسَامُحُهُ مَعَ ذَلِكَ العَبْدِ أَكْبَرَ".

أَجَابَ (نَجِيْبٌ): "إِنَّنِي فَقِيْرٌ فِعْلاً، بَلْ إِنَّنِي مُعْدَمٌ أَيْضاً، وَلَكِنْ هَلْ تَعْلَمُ مَتَى أُفَكِّرُ بِطَرِيْقَةٍ أَفْضَلَ؟ حِيْنَمَا أَقْرَعُ الطَّبْلَ فَقَطْ".

أَجَابَهُ القَائِدُ: "وَهَلْ تَبْتَهِلُ إِلَى رَبِّكَ وَتُنَاجِيْهِ أَثْنَاءَ قَرْعِكَ الطَّبْلَ يَا صَدِيْقِي؟"

رَدَّ (نَجِيْبٌ): "لَا، لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ أَبَداً، إِذْ مَا فَائِدَةُ كُلِّ هَذَا؟ فَأَنَا لَا أَمْلِكُ شَرْوَى نَقِيْرٍ، وَلَيْسَ لَدَيَّ أَهْلٌ أَوْ أَصْدِقَاءُ، لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ سِوَى صَدِيْقٍ وَاحِدٍ أَوْصَلَنِي إِلَى مَا أَنَا فِيْهِ مِنْ هَلَاكٍ".

قَالَ القَائِدُ: "حَرِّرْ نَفْسَكَ مِنْ تِلْكَ الأَوْهَامِ، إِذْ إِنَّ الصَّدِيْقَ لَا يَحُوْلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَبِّكَ".

أَجَابَ (نَجِيْبٌ): "إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَدُوّاً لِي، بَلْ كَانَ أَفْضَلَ صَدِيْقٍ عَرَفْتُهُ".

قَالَ القَائِدُ: "لَكِنَّكَ تَقُوْلُ إِنَّهُ سَبَبُ مَا حَلَّ بِكَ مِنْ دَمَارٍ".

أَجَابَ (نَجِيْبٌ): "وَهُوَ مَنْ جَعَلَنِي أَرْتَدِي هَذِهِ الأَسْمَالَ البَالِيَةَ، وَأَعِيْشُ فِي بَيْتٍ حَقِيْرٍ لِأَنَامَ فِيْهِ كَالكِلَابِ.



الَّتي تنامُ في أَحْقَرِ الوجار، وَمَعَ ذَلِكَ مازِلْتُ أَعُدُّهُ صَديْقاً عَزيْزاً"، قالَ ذَلِكَ وَهُوَ يَضْحَكُ بِمَرارَةٍ.
رَدَّ عَلَيْهِ القَائِدُ بِقَوْلِه: "هَلْ تَقْضي لَيالِيَكَ بِالسَّهَرِ يا صَديْقي؟"
أَجابَهُ (نَجيْبٌ): "لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ مُنْذُ عِشْرِيْنَ عاماً".
عِنْدَها تَمَلَّكَتِ الحَيْرَةُ القائِدَ الَّذي رَدَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِه: "إِذا كانَ ذَلِكَ الصَّديْقُ يَحُوْلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ راحَةِ بالِكَ، فَلِمَ لا تَتخَلَّى عَنْهُ؟" وَكانَ ذَلِكَ هُوَ كُلَّ ما وَرَدَ في ذِهْنِه مِنْ كَلامٍ لِيُعَبِّرَ بِه عَنْ حَيْرَتِه.
فَأَجابَهُ العَجُوْزُ: "لا أَسْتَطيْعُ أَنْ أَتخَلَّى عَنْهُ الآنَ، وَلَكِنْ سَأَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تُبْقِيَني ضِمْنَ فِرْقَتِكَ لِأَسْتَمِرَّ في الضَّرْبِ عَلى الطَّبْلِ لَعَلّي أَسْتَطيْعُ أَنْ أَتخَلَّى عَنْهُ مُسْتَقْبَلاً".
بَيْدَ أَنَّ رَدَّهُ زادَ مِنْ حَيْرَةِ القائِدِ الَّذي أَجابَهُ قائِلاً: "واصِلِ القَرْعَ عَلى الطَّبْلِ إِلى أَنْ تَصِلَ إِلى الإِيْقاعِ الَّذي يُناسِبُكَ".

وَفي إِحْدَى اللَّيالي تَضَرَّعَ القائِدُ إِلى رَبِّه بِصَوْتٍ عالٍ لِيُساعِدَ صَديْقَهُ المِسْكيْنَ، وَيُخَلِّصَهُ مِنَ العَدُوِّ الَّذي يَتَرَبَّصُ بِه وَيَدْفَعُهُ نَحْوَ الهَلاكِ، فَانْتابَ (نَجيْباً) ذُعْرٌ شَديْدٌ، فَسَلَّمَ الطَّبْلَ لِرَجُلٍ آخَرَ، وَأَخَذَ يَبْتَعِدُ عَنِ الطَّريْقِ وَهُوَ يَتَعَثَّرُ في مِشْيَتِه، غَيْرَ أَنَّهُ عادَ في اليَوْمِ التّالي إِلى مُمارَسَةِ مَهامِّهِ مِنْ جَديْدٍ.
كانَ شِتاءُ عامِ ١٨٩٢ شِتاءً لا يُنْسى، إِذْ بَلَغَتْ طَبَقَةُ الثَّلْجِ فيْهِ عِدَّةَ إِنْشاتٍ، فَواجَهَتْ مَجْمُوْعَةَ المُنْقِذيْنَ مُشْكِلاتٌ كَثيْرَةٌ، لَمْ يَتَمَكَّنُوْا مِنْ حَلِّ مُعْظَمِها، وَلِهَذا تَمَّ إِيْواءُ المِئاتِ مِنَ النِّساءِ، وَالوِلْدانِ، وَالشُّيُوْخِ في مَقَرِّ حَمْلَةِ الإِنْقاذِ طَلَباً لِلدِّفْءِ وَالغِذاءِ، مِمّا دَفَعَ رِجالَ تِلْكَ الحَمْلَةِ إِلى طَرْقِ أَبْوابِ البُيُوْتِ، وَالمَتاجِرِ، وَالمَكاتِبِ في المَديْنَةِ بِهَدَفِ جَمْعِ الأَمْوالِ لِتَأْميْنِ الطَّعامِ لِلْجِياعِ، إِلّا أَنَّ التَّبَرُّعاتِ اليَوْمِيَّةَ لَمْ تَكُنْ تَكْفي لِتَأْميْنِ ما يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ لِلفُقَراءِ.
وَمَعَ اقْتِرابِ العيْدِ بَلَغَ عَدَدُ الأَطْفالِ المَوْجُوْديْنَ في مَقَرِّ الحَمْلَةِ خَمْسيْنَ طِفْلاً، وَبَقِيَ عَدَدٌ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ خارِجَ المَقَرِّ يَعيْشُوْنَ حالَةً مِنَ الضَّنْكِ وَالعَوَزِ في مَوْسِمِ العيْدِ، فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ أَيُّ شَيْءٍ، غَيْرَ ما يَجُوْدُ بِه عَلَيْهِمْ رِجالُ حَمْلَةِ الإِنْقاذِ، الَّذيْنَ كانُوا يَسْعَوْنَ جاهِديْنَ إِلى تَقْديْمِ هَدايا العيْدِ لِهَؤُلاءِ الأَطْفالِ.
وَهَذا ما جَعَلَ القائِدَ يَشْعُرُ بِالضِّيْقِ، فَقَدْ كانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ أَعْلَنَ عَنْ عَدَمِ قُدْرَةِ الحَمْلَةِ عَلى تَقْديْمِ هَدايا العيْدِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سَيُحْزِنُ قُلُوْبَ الأَطْفالِ الصَّغيْرَةَ الَّتي تَنْبِضُ تَحْتَ مَلابِسِهِمُ القُطْنِيَّةِ الرَّقيْقَةِ وَالسُّتَرِ المُهْتَرِئَةِ، أَكْثَرَ مِنْ حُزْنِهِمْ في حالِ إِعْلانِهِ عَنْ عَدَمِ قُدْرَةِ الحَمْلَةِ عَلى تَقْديْمِ الغِذاءِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَتَوَفَّرُ مِنَ الطَّعامِ ما يَكْفي لِإِطْعامِ الجَميْعِ يَوْمِيّاً.
وَقَبْلَ حُلُوْلِ العيْدِ بِأَرْبَعَةِ أَيّامٍ قَرَّرَ القائِدُ أَنْ يُعْلِنَ عَنْ عَدَمِ قُدْرَةِ الحَمْلَةِ عَلى شِراءِ هَدايا العيْدِ لِلأَطْفالِ؛ لِأَنَّهُ كانَ يَشْعُرُ أَنَّهُ مِنَ الظُّلْمِ أَنْ يَحْلُمَ الأَطْفالُ بِالهَدِيَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّبَ أَمَلُهُمْ يَوْمَ العيْدِ.
وَفي تِلْكَ الأُمْسِيَةِ الَّتي اشْتَدَّ فيْها البَرْدُ، وَتَزايَدَ هُطُوْلُ الثُّلُوْجِ دَخَلَ القائِدُ إِلى القاعَةِ بَعْدَ أَنْ شَعَرَ بِبُرُوْدَةٍ في قَدَمَيْه، كَما شابَتْ وَجْهَهُ حُمْرَةٌ بِسَبَبِ الصَّقيْعِ الَّذي لَفَحَهُ، ثُمَّ خَلَعَ مِعْطَفَهُ، وَبَعْدَ تَناوُلِ العَشاءِ شارَكَ جَميْعُ مَنْ في القاعَةِ في ابْتِهالٍ قَصيْرٍ، وَتَضَرَّعَ إِلى اللهِ لِيَرْفَعَ عَنْهُمْ تِلْكَ المِحْنَةَ.
وَفي ذَلِكَ الوَقْتِ كانَ (نَجيْبٌ) يَجْلِسُ في الزّاوِيَةِ البَعيْدَةِ المُظْلِمَةِ مِنَ القاعَةِ، وَعِنْدَ السّاعَةِ السّابِعَةِ تَماماً نَهَضَ القائِدُ واقِفاً، وَأَخَذَ يَطْرُقُ عَلى المِنْضَدَةِ بِقِطْعَةٍ مِنَ الفَحْمِ، وَعِنْدَما خَفَتَتِ الأَصْواتُ بَدَأَ حَديْثَهُ مُخاطِباً الجَميْعَ.



كَانَ الأَطْفَالُ قَدِ اجْتَمَعُوا، وَتَحَلَّقُوا ضِمْنَ دَائِرَةٍ وَاحِدَةٍ غَيْرِ مُنْتَظِمَةٍ، وَكُلُّهُمْ آذَانٌ صَاغِيَةٌ، إِذْ كَانَ لَدَيْهِمْ إِحْسَاسٌ بِأَنَّ القَائِدَ سَيَذْكُرُ فِي حَدِيْثِهِ هَدَايَا العِيْدِ، فَكَانُوا جَمِيْعاً يَسْتَمِعُوْنَ بِلَهْفَةٍ، وَكُلُّهُمْ أَمَلٌ وَشَوْقٌ وَحَمَاسَةٌ، وَقَدْ لَمَحَ القَائِدُ تِلْكَ النَّظْرَةَ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَقَطَّبَ مَا بَيْنَ حَاجِبَيْهِ، وَازْدَرَدَ رِيْقَهُ بِصُعُوْبَةٍ، ثُمَّ تَابَعَ كَلَامَهُ، وَأَخْبَرَهُمْ بِعَدَمِ قُدْرَةِ الحَمْلَةِ عَلَى شِرَاءِ هَدَايَا العِيْدِ، وَهُوَ يُلَاحِظُ خُفُوْتَ تَوَهُّجِ الأَمَلِ فِي عُيُوْنِهِمْ.

أَجَلْ، لَمْ يَكُنْ بِالإِمْكَانِ شِرَاءُ هَدَايَا العِيْدِ فِي ذَلِكَ العَامِ، إِلَّا أَنَّ الاسْتِغْنَاءَ عَنْ بَعْضِ الأَشْيَاءِ لَمْ يَكُنْ أَمْراً جَدِيْداً عَلَى هَؤُلَاءِ الأَطْفَالِ الفُقَرَاءِ، بَيْدَ أَنَّ الصِّغَارَ مِنْهُمْ أَخَذُوا يَبْكُوْنَ بِصَوْتٍ عَالٍ.

وَعِنْدَهَا نَهَضَ (نَجِيْبٌ) وَخَرَجَ مِنَ الغُرْفَةِ بِهُدُوْءٍ، وَقَدْ سَمِعُوْهُ جَمِيْعاً وَهُوَ يَتَحَسَّسُ طَرِيْقَهُ فِي المَمَرِّ، وَفَجْأَةً، انْفَجَرَ صَوْتٌ مُدَوٍّ مَلَأَ صَدَاهُ أَرْكَانَ البِنَاءِ، فَأَجْفَلَ القَائِدُ، ثُمَّ أَخَذَ يَضْحَكُ، وَقَالَ: "كَانَ ذَلِكَ صَوْتَ صَدِيْقِنَا (نَجِيْب) وَهُوَ يُفَكِّرُ بِطَرِيْقَتِهِ الهَادِئَةِ".

ثُمَّ أَخَذَ عَزِيْفُ الرِّيْحِ يَهُزُّ النَّوَافِذَ، وَبَدَأَتِ النِّسْوَةُ بِإِعْدَادِ الأَسِرَّةِ لِلنَّوْمِ.

وَعِنْدَ السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ، بَيْنَمَا كَانَ القَائِدُ يَلُفُّ وِشَاحاً حَوْلَ رَقَبَتِهِ اسْتِعْدَاداً لِقَطْعِ طَرِيْقِ العَوْدَةِ إِلَى المَنْزِلِ، سَمِعَ وَقْعَ خُطُوَاتٍ عَلَى الدَّرَجِ، ثُمَّ فُتِحَ البَابُ، وَدَخَلَ (نَجِيْبٌ) الَّذِي كَانَ الثَّلْجُ يُغَطِّي جِسْمَهُ، وَوَجْهُهُ أَحْمَرُ مِنْ شِدَّةِ البَرْدِ.

ثُمَّ مَشَى (نَجِيْبٌ) دَاخِلَ القَاعَةِ، وَوَصَلَ إِلَى حَيْثُ كَانَ القَائِدُ يَقِفُ، وَكَانَ يَجُرُّ تَحْتَ مِعْطَفِهِ كِيْساً مُبَلَّلاً قَدْ أَصَابَهُ الطِّيْنُ، ثُمَّ رَفَعَهُ وَوَضَعَهُ فَوْقَ المِنْضَدَةِ.

فَسَأَلَهُ القَائِدُ: "مَا هَذَا الكِيْسُ؟ وَمَاذَا يُوْجَدُ فِيْهِ؟ هَلْ لَكَ أَنْ تَفْتَحَهُ؟"

فَاسْتَجَابَ (نَجِيْبٌ) لِطَلَبِهِ، وَفَتَحَ الكِيْسَ، وَعِنْدَهَا عَلَتِ الدَّهْشَةُ الوُجُوْهَ، وَذَلِكَ عِنْدَ مُشَاهَدَتِهِمْ مَنْظَرَ كَوْمَةِ القِطَعِ النَّقْدِيَّةِ الذَّهَبِيَّةِ وَالفِضِّيَّةِ الَّتِي تَنَاثَرَتْ مِنَ الكِيْسِ فَوْقَ الطَّاوِلَةِ.

بَعْدَهَا صَاحَ (نَجِيْبٌ): "هَيَّا لِنَقُمِ الآنَ!"

فَمَضَى وَقْتٌ طَوِيْلٌ لَمْ يُسْمَعْ خِلَالَهُ سِوَى هَدِيْرِ الرِّيْحِ، وَرَنِيْنِ القِطَعِ النَّقْدِيَّةِ.

وَأَتَى الجَوَابُ بَعْدَ نِهَايَةِ العَدِّ: "سِتُّ مِئَةٍ وَثَلَاثٌ وَعِشْرُوْنَ قِطْعَةً ذَهَبِيَّةً، وَخَمْسٌ وَثَمَانُوْنَ قِطْعَةً فِضِّيَّةً".

قَالَ (نَجِيْبٌ): "إِنَّهَا لَكَ أَيُّهَا القَائِدُ، لَقَدْ قَرَّرْتُ أَخِيْراً أَنْ أَتَخَلَّى عَنْ صَدِيْقِيَ القَدِيْمِ الَّذِي حَدَّثْتُكَ عَنْهُ، لَقَدْ كَانَتِ العُمْلَةُ هِيَ الصَّدِيْقَ الوَحِيْدَ لِي، وَكَانَ الصِّبْيَةُ مُحِقِّيْنَ حِيْنَمَا كَانُوا يَنْعَتُوْنَنِي بِالبَخِيْلِ، لِذَا أَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذَا المَبْلَغَ، وَأَرْجُو أَنْ تُنْفِقَهُ فِي شِرَاءِ هَدَايَا العِيْدِ لِلصِّغَارِ".



شَمْعَدانُ المَطْرانِ

كَانَ المَطْرَانُ (ميريل) رَجُلاً عَجُوْزاً طاعِناً في السِّنِّ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ أَنْ يَكُوْنَ شَخْصاً لَطِيْفاً وَمُتَسَامِحاً وَكَرِيْماً، إِذْ كَانَ يُنْفِقُ جُلَّ ما يَأْتِيْهِ عَلَى الفُقَرَاءِ، وَيَحْتَفِظُ بِجُزْءٍ يَسِيْرٍ لِنَفْسِهِ، غَيْرَ أَنَّ عَيْبَهُ الوَحِيْدَ كَانَ في عِشْقِهِ لِلْأَوَانِي الفِضِّيَّةِ، إِذْ كَانَ يَشْتَرِي قِطْعَةً، أَوْ أَكْثَرَ مِنْ تِلْكَ الكَمالِيَّاتِ كُلَّما سَنَحَتْ لَهُ الفُرْصَةُ.

وَفي إِحْدَى الأُمْسِيَاتِ، جَلَسَ المَطْرَانُ لِيَتَنَاوَلَ عَشَاءَهُ قُبَالَةَ المَوْقِدِ، فَسَمِعَ طَرْقَةً عَلَى البَابِ، فَهَتَفَ قَائِلاً: "أُدْخُلْ!"، عِنْدَهَا فُتِحَ البَابُ، وَظَهَرَ رَجُلٌ عِنْدَ العَتَبَةِ كَانَتْ ثِيابُهُ مُتَسِخَةً وَمُمَزَّقَةً، وَشَعْرُهُ أَشْعَثَ، وَلِحْيَتُهُ غَيْرَ مُهَذَّبَةٍ، وَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ التَّعَبُ وَالإِنْهَاكُ، كَمَا بَدَا مُرْعِباً جِدّاً.

وَعِنْدَ رُؤْيَةِ مَنْظَرِ ذَلِكَ الرَّجُلِ أَخَذَ المَطْرَانُ يُخَاطِبُ نَفْسَهُ في سِرِّهِ بِقَوْلِهِ: "لَعَلَّهُ لِصٌّ".

وَ لَمْ يُمْهِلْهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ طَوِيْلاً لِيُخَمِّنَ مَاذَا يَكُوْنُ هَذَا الرَّجُلُ؟ أَوْ مَاذَا يُرِيْدُ؟ فَقَالَ: "اِسْمِي (جان فالجان)" ثُمَّ سَكَتَ، وَأَخَذَ يَنْظُرُ بِثَبَاتٍ في عَيْنَي المَطْرَانِ.

إِلَّا أَنَّ المَطْرَانَ لَمْ يَرِفَّ لَهُ جَفْنٌ حِيْنَمَا سَمِعَ بِاسْمِهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ (جان فالجان) مَا هُوَ إِلَّا لِصٌّ قَضَى حُكْماً بِالسِّجْنِ مُدَّةَ تِسْعَةَ عَشَرَ عَاماً بِجُرْمِ السَّرِقَةِ، وَقَدْ أُطْلِقَ سَرَاحُهُ مُنْذُ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ فَقَطْ، وَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَيْضاً أَنَّ سُكَّانَ المَدِيْنَةِ كُلَّهُمْ يَخَافُوْنَ هَذَا اللِّصَّ وَيَتَجَنَّبُوْنَهُ، وَأَنَّهُ مِنَ المُسْتَحِيْلِ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ أَيُّ مَنْزِلٍ أَوْ فُنْدُقٍ في المَدِيْنَةِ، فَقَدْ كَانَ يُثِيْرُ الرُّعْبَ أَيْنَمَا حَلَّ.

لَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعِ المَطْرَانَ مِنْ أَنْ يُجِيْبَهُ بِلُطْفٍ قَائِلاً: "كَيْفَ لِي أَنْ أُسَاعِدَكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ الطَّيِّبُ؟"

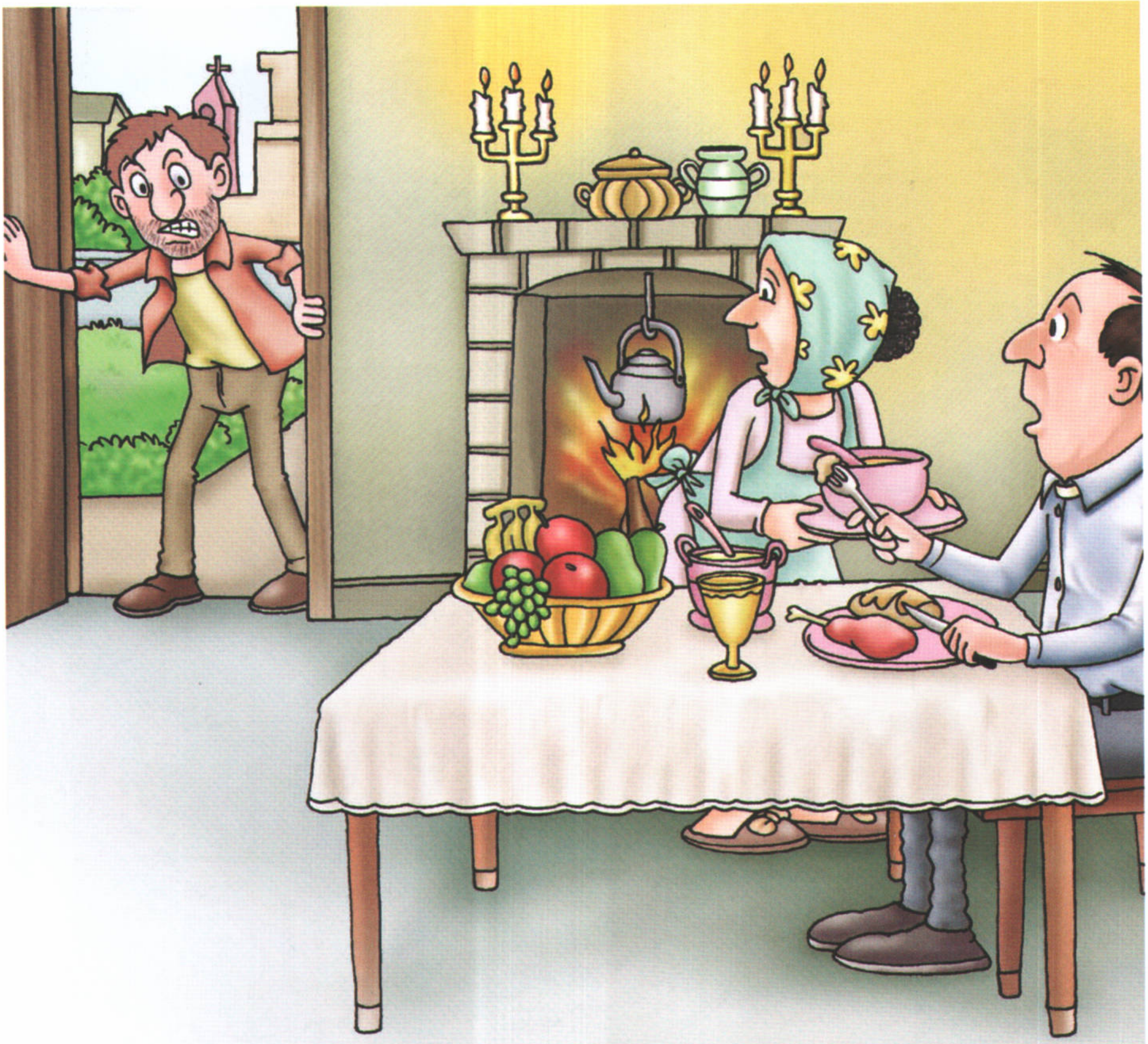
رَدَّ (جان فالجان): "لَقَدْ كُنْتُ سَجِيْناً، وَقَدْ أُخْلِيَ سَبِيْلِي مُنْذُ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ بَعْدَمَا أَمْضَيْتُ تِسْعَةَ عَشَرَ عَاماً دَاخِلَ السِّجْنِ، وَمُنْذُ أَنْ أُطْلِقَ سَرَاحِي وَأَنَا أَتَجَوَّلُ في المَدِيْنَةِ دُوْنَ أَنْ أَجِدَ مَنْ يَسْتَضِيْفُنِي عِنْدَهُ، إِلَى أَنْ بَلَغَ بِيَ الجُوْعُ وَالتَّعَبُ كُلَّ مَبْلَغٍ".

عِنْدَهَا نَادَى المَطْرَانُ خَادِمَتَهُ قَائِلاً: "سَيِّدَةُ (مانغلوار)! لَدَيْنَا ضَيْفٌ عَلَى العَشَاءِ، إِنَّهُ السَّيِّدُ (فالجان) الَّذِي سَيَبِيْتُ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ، لِذَا أَرْجُو أَنْ تَسْتَبْدِلِي بِمُلَاءَاتِ السَّرِيْرِ المُخَصَّصِ لِلضُّيُوْفِ مُلَاءَاتٍ نَظِيْفَةً".

وَبَعْدَ تَنَاوُلِهِمَا وَجْبَةَ العَشَاءِ أَمْسَكَ المَطْرَانُ بِالشَّمْعَدَانَيْنِ الفِضِّيَّيْنِ المَوْضُوْعَيْنِ عَلَى رَفِّ المَوْقِدِ، وَأَعْطَى أَحَدَهُمَا لِضَيْفِهِ وَاحْتَفَظَ بِالآخَرِ لِنَفْسِهِ.

ثُمَّ خَاطَبَ ضَيْفَهُ قَائِلاً: "اِسْمَحْ لِي أَنْ أُرْشِدَكَ إِلَى غُرْفَتِكَ يَا سَيِّدِي".

كَانَ اللِّصُّ مُتْعَباً إِلَى دَرَجَةِ أَنَّهُ غَطَّ في نَوْمٍ عَمِيْقٍ عَلَى الفَوْرِ، وَاسْتَيْقَظَ مُبَكِّراً في صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِي حِيْنَمَا كَانَتِ الشَّمْسُ تَشْرَعُ بِرِحْلَةِ الشُّرُوْقِ، وَالظُّلْمَةُ مَازَالَتْ تَلُفُّ أَرْجَاءَ المَكَانِ، عِنْدَهَا تَذَكَّرَ (جان فالجان)



الوَجْبَةَ اللَّذِيْذَةَ الَّتِي تَناوَلَهَا اللَّيْلَةَ الفَائِتَةَ، وَالأَوَانِيَ الفِضِّيَّةَ الَّتِي كَانَتْ مَوْجُوْدَةً عَلَى الطَّاوِلَةِ، كَمَا أَخَذَ يَتَذَكَّرُ الخِزَانَةَ الَّتِي أَخْفَتْ فِيْهَا الخَادِمَةُ تِلْكَ الأَوَانِي، فَانْسَلَّ مِنْ سَرِيْرِهِ، وَمَضَى نَحْوَ تِلْكَ الخِزَانَةِ، ثُمَّ فَتَحَ أَحَدَ أَدْرَاجِهَا بِحَذَرٍ شَدِيْدٍ، فَبُهِرَ لِكَثْرَةِ الأَوَانِي الفِضِّيَّةِ.



الَّتي كَانَتْ تَلْتَمِعُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ، فَوَضَعَهَا الوَاحِدَةَ تِلْوَ الأُخْرَى فِي حَقِيْبَةٍ كَانَتْ بِحَوْزَتِهِ، بَعْدَ ذَلِكَ فَتَحَ بَابَ المَنْزِلِ بِهُدُوْءٍ شَدِيْدٍ، ثُمَّ تَوَارَى فِي الظَّلَامِ، بَيْنَمَا كَانَ المَطْرَانُ يَغُطُّ فِي نَوْمٍ عَمِيْقٍ.

وَفِي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ مِنْ صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِي، قَبْلَ أَنْ يَسْتَيْقِظَ البَشَرُ مِنْ نَوْمِهِمْ، سُمِعَ طَرْقٌ شَدِيْدٌ عَلَى بَابِ مَنْزِلِ المَطْرَانِ، فَسَارَعَ بِفَتْحِ البَابِ لِيَجِدَ أَمَامَهُ شُرْطِيّاً مُمْسِكاً بِـ(جان فالجان) مِنْ يَاقَةِ قَمِيْصِهِ. عِنْدَهَا صَاحَ المَطْرَانُ: "أَهَذَا أَنْتَ؟ كُنْتُ مُتَأَكِّداً أَنَّكَ سَتَعُوْدُ إِلَيَّ؛ لِأَنَّكَ نَسِيْتَ



أنْ تأْخُذَ الشَّمْعَدانَيْنِ اللَّذَيْنِ وَهَبْتُهُما لَكَ أيْضاً".

ذُهِلَ اللِّصُّ عِنْدَ سَماعِهِ لِذَلِكَ، وَسَرَتْ في جَوانِحِهِ مَشاعِرُ الشُّكْرِ وَالعِرْفانِ لِذَلِكَ الرَّجُلِ الطَّيِّبِ، فَأَخَذَ يَنْظُرُ إلَى المَطْرانِ خَجَلاً مِنْ فَعْلَتِهِ، وَاعْتَذَرَ لَهُ عَمَّا اقْتَرَفَتْ يَداهُ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنِ انْصَرَفَ الشُّرْطِيُّ، وَتَرَكَهُ وَشَأْنَهُ.

وَمُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ تَحَوَّلَ (جان فالجان) إلَى شَخْصٍ آخَرَ.

التَّضحيَةُ في سَبيلِ الحُبّ

الْتَقى كُلٌّ مِنْ (مَازِنٍ) وَ(مَهَا) في اجْتِمَاعٍ لِطُلَّابِ الفُنُوْنِ، حَيْثُ كَانَ (مَازِنٌ) فَنَّاناً، وَ(مَهَا) مُوْسِيْقِيَّةً، فَوَقَعَ كُلٌّ مِنْهُمَا في حُبِّ الآخَرِ، فَتَزَوَّجَا عَلَى عَجَلٍ.

وَبَدَأَا حَيَاتَهُمَا في شُقَّةٍ صَغِيْرَةٍ، إِلَّا أَنَّ مُشَاطَرَةَ كُلٍّ مِنْهُمَا الآخَرَ في المَحَبَّةِ، وَعِشْقِ الفَنِّ كَانَتْ هِيَ المَصْدَرَ الوَحِيْدَ لِسَعَادَتِهِمَا، وَمَا كَانَ لِصِغَرِ مِسَاحَةِ الشُّقَّةِ أَنْ يُعَكِّرَ عَلَيْهِمَا صَفْوَ حَيَاتِهِمَا.

أَمَّا أَهْدَافُهُمَا المُسْتَقْبَلِيَّةُ فَقَدْ كَانَتْ وَاضِحَةً تَمَاماً، إِذْ كَانَ (مَازِنٌ) يَرْغَبُ في أَنْ يُصْبِحَ فَنَّاناً مَشْهُوْراً يَتَهَافَتُ الأَغْنِيَاءُ وَالنُّبَلَاءُ عَلَى شِرَاءِ لَوْحَاتِهِ، فِيْمَا كَانَتْ (مَهَا) تَطْمَحُ إِلَى تَعَلُّمِ المُوْسِيْقَا.

كَانَتِ السَّعَادَةُ تُخَيِّمُ عَلَى شُقَّتِهِمَا الصَّغِيْرَةِ، إِذْ كَانَا يَتَحَاوَرَانِ بِمَحَبَّةٍ يَوْمِيّاً بَعْدَ يَوْمِ عَنَاءٍ طَوِيْلٍ، وَيَتَشَارَكَانِ في الأَحْلَامِ وَالطُّمُوْحَاتِ.

وَلَكِنْ بَعْدَ فَتْرَةٍ بَدَأَتِ المَتَاعِبُ تَظْهَرُ، لِذَا قَرَّرَتْ (مَهَا) أَنْ تَتَوَقَّفَ عَنْ مُتَابَعَةِ دُرُوْسِ المُوْسِيْقَا؛ وَذَلِكَ لِتُوَفِّرَ بَعْضَ المَالِ لِأُسْرَتِهَا.

بَعْدَ ذَلِكَ أَمْضَتْ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً وَهِيَ تَبْحَثُ عَنْ طُلَّابٍ لِتُعَلِّمَهُمْ فُنُوْنَ المُوْسِيْقَا، وَأَخِيْراً عَادَتْ إِلَى البَيْتِ وَالسَّعَادَةُ بَادِيَةٌ في مُحَيَّاهَا في إِحْدَى الأُمْسِيَاتِ.

فَنَادَتْ زَوْجَهَا بِفَرَحٍ وَسُرُوْرٍ: "عَزِيْزِي (مَازِنُ)، لَقَدْ أَصْبَحَ لَدَيَّ طَالِبَةٌ أَهْلُهَا مِنْ أَغْنِيَاءِ المَدِيْنَةِ، تَعِيْشُ في بَيْتٍ يُشْبِهُ القَصْرَ، يَكْفِي أَنْ تَنْظُرَ إِلَى البَوَّابَةِ الأَمَامِيَّةِ لِذَلِكَ البَيْتِ لِتَعْرِفَ مَدَى غِنَى أَهْلِهَا، وَلَقَدِ اتَّفَقْنَا





عَلَى أَنْ أُعْطِيَهَا ثَلاثَةَ دُرُوْسٍ فِي الأُسْبُوْعِ، فَمَا رَأْيُكَ يَا عَزِيْزِي؟ وَسَأَحْصَلُ عَلَى خَمْسَةِ قِطَعٍ نَقْدِيَّةٍ عَنْ كُلِّ دَرْسٍ أُعْطِيْهِ، وَإِذَا وَصَلَ عَدَدُ تَلامِيْذِي إِلَى اثْنَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ، يُمْكِنُنِي عِنْدَئِذٍ أَنْ أُعَاوِدَ حُضُوْرَ دُرُوْسِ المُوْسِيْقَا مِنْ جَدِيْدٍ، وَالآنَ أُرِيْدُكَ أَنْ تُزِيْلَ مِسْحَةَ التَّعَبِ عَنْ وَجْهِكَ، وَأَنْ تَأْتِيَ مَعِيَ لِتَنَاوُلِ العَشَاءِ".

أَجَابَهَا (مَازِنٌ): "وَكَيْفَ تَتَخَيَّلِيْنَ أَنْ يَكُوْنَ شُعُوْرِي فِي مَوْقِفٍ كَهَذَا؟ وَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ أَدَعَكِ تَكْدَحِيْنَ مِنْ أَجْلِ الرِّزْقِ بَيْنَمَا أَتَفَرَّغُ أَنَا لِلْفَنِّ وَالرَّسْمِ؟!! أَظُنُّ أَنَّهُ بِمَقْدُوْرِي أَنْ أَبِيْعَ الصُّحُفَ وَالجَرَائِدَ، أَوْ أَنْ أَعْمَلَ بَنَّاءً لِأَحْصُلَ عَلَى قِطْعَةٍ نَقْدِيَّةٍ أَوْ قِطْعَتَيْنِ فِي اليَوْمِ، مَا رَأْيُكِ؟"

عِنْدَهَا أَقْبَلَتْ (مَهَا) نَحْوَ زَوْجِهَا، وَرَبَّتَتْ عَلَى كَتِفِهِ، ثُمَّ أَخَذَتْ تُوَاسِيْهِ بِقَوْلِهَا: "مَا هَذَا الكَلامُ يَا زَوْجِي العَزِيْزَ! لَابُدَّ أَنْ تُتَابِعَ دِرَاسَاتِكَ، فَأَنَا لَنْ أَبْتَعِدَ عَنِ المُوْسِيْقَا لِأَعْمَلَ بِمِهْنَةٍ أُخْرَى، بَلْ سَأَتَعَلَّمُ وَأَنَا أُدَرِّسُ التَّلامِيْذَ".

رَدَّ (مَازِنٌ) وَهُوَ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى طَبَقِ الخُضَارِ: "حَسَناً".

ثُمَّ هَتَفَ قَائِلاً: "نَسِيْتُ أَنْ أُخْبِرَكِ، لَقَدِ امْتَدَحَ أَحَدُهُمْ تِلْكَ اللَّوْحَةَ الَّتِي صَوَّرْتُ فِيْهَا مَنْظَرَ الحَدِيْقَةِ، كَمَا سَمَحَ لِي (كَمَالٌ) بِتَعْلِيْقِهَا ضِمْنَ وَاجِهَةِ مَتْجَرِهِ، وَهَكَذَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَبِيْعَهَا".

وَفِي الأُسْبُوْعِ التَّالِي بَدَأَ الزَّوْجَانِ بِتَنَاوُلِ طَعَامِ الإِفْطَارِ فِي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ، وَذَلِكَ لِيَنْطَلِقَا إِلَى العَمَلِ بَاكِراً.

وَمَعَ نِهَايَةِ الأُسْبُوْعِ عَادَتْ (مَهَا) وَأَمَارَاتُ الفَرَحِ وَالسُّرُوْرِ بَادِيَةٌ عَلَيْهَا، وَدَخَلَتْ إِلَى شُرْفَتِهِمَا الصَّغِيْرَةِ، وَوَضَعَتْ عَلَى المِنْضَدَةِ ثَلاثَةَ سَنَدَاتٍ مَالِيَّةٍ، يَشْتَمِلُ كُلٌّ مِنْهَا عَلَى حِسَابٍ بِخَمْسِ قِطَعٍ نَقْدِيَّةٍ، ثُمَّ هَتَفَتْ بِضَجَرٍ: "تُضَايِقُنِي تِلْمِيْذَتِي كَثِيْراً فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ، إِنَّهَا لا تَتَمَرَّنُ جَيِّداً، وَتَضْطَرُّنِي إِلَى تَكْرَارِ مَا عَلَّمْتُهَا إِيَّاهُ".

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَخْرَجَ (مَازِنٌ) ثَلاثَةَ سَنَدَاتٍ مَالِيَّةٍ أَحَدُهَا بِعَشْرِ قِطَعٍ نَقْدِيَّةٍ، وَالثَّانِي بِخَمْسِ قِطَعٍ، أَمَّا الثَّالِثُ فَكَانَ بِقِطْعَتَيْنِ نَقْدِيَّتَيْنِ، وَوَضَعَهُمَا إِلَى جَانِبِ مَا كَسَبَتْهُ (مَهَا) مِنْ عَرَقِ جَبِيْنِهَا.

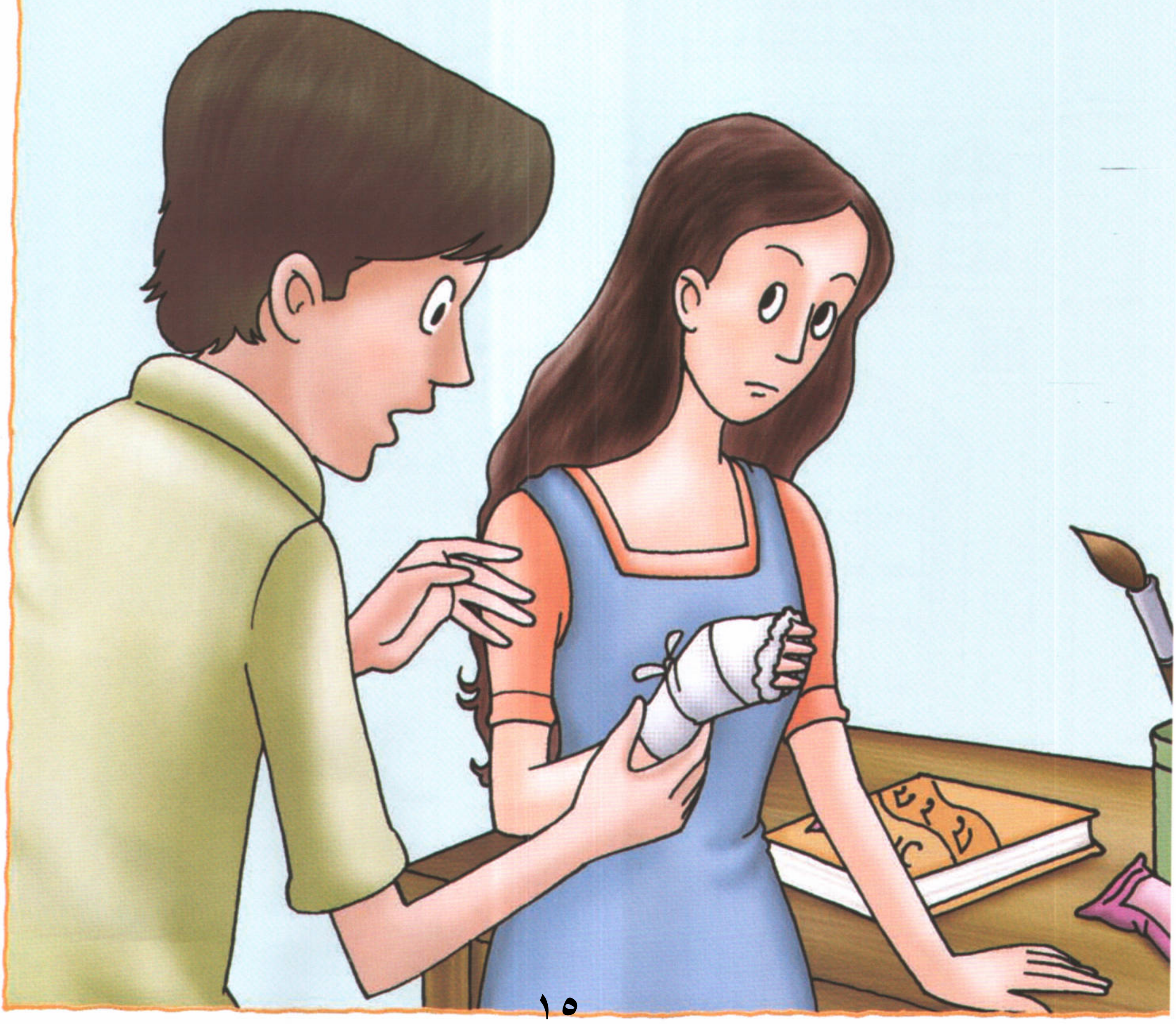
ثُمَّ صَاحَ قَائِلاً: "لَقَدْ بِعْتُ لَوْحَتِي الَّتِي رَسَمْتُهَا بِالأَلْوَانِ المَائِيَّةِ لِرَجُلٍ مِنَ المَدِيْنَةِ القَرِيْبَةِ".
فَأَجَابَتْهُ (مَهَا): "حَقّاً! إِنَّكَ تَمْزَحُ".
رَدَّ عَلَيْهَا زَوْجُهَا: "لَكَمْ كُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ تَرَيْهِ يَا عَزِيْزَتِي، لَقَدْ كَانَ رَجُلاً بَدِيْناً يَرْتَدِي وِشَاحاً صُوْفِيّاً، وَقَدْ شَاهَدَ لَوْحَتِي المَوْضُوْعَةَ فِي وَاجِهَةِ مَتْجَرِ (كَمَالٍ)، ثُمَّ طَلَبَ مِنِّي أَنْ أَرْسُمَ لَهُ لَوْحَةً أُخْرَى".
صَاحَتْ (مَهَا) بِلَهْفَةٍ: "أَنَا مَسْرُوْرَةٌ جِدّاً لِمُتَابَعَتِكَ العَمَلَ فِي الفَنِّ، وَلَابُدَّ أَنْ تَنْجَحَ، صَدِّقْنِي، لَقَدْ أَصْبَحَ لَدَيْنَا الآنَ اثْنَتَانِ وَثَلَاثُوْنَ قِطْعَةً نَقْدِيَّةً، وَلَمْ يَسْبِقْ لَنَا أَنْ حَصَلْنَا عَلَى مِثْلِ هَذَا المَبْلَغِ مِنْ قَبْلُ، لِذَا مَا رَأْيُكَ بِتَنَاوُلِ وَجْبَةٍ مِنَ المَحَارِ عَلَى العَشَاءِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ؟".
وَفِي مَسَاءِ الخَمِيْسِ التَّالِي، وَصَلَ (مَازِنٌ) إِلَى المَنْزِلِ قَبْلَ زَوْجِهِ، وَوَضَعَ عَلَى طَاوِلَةِ الشُّرْفَةِ سَبْعَ عَشْرَةَ قِطْعَةً نَقْدِيَّةً، ثُمَّ غَسَلَ يَدَيْهِ لِيَتَخَلَّصَ مِمَّا عَلِقَ بِهِمَا مِنَ الطِّلَاءِ الأَسْوَدِ.
وَبَعْدَ نِصْفِ سَاعَةٍ وَصَلَتْ (مَهَا) إِلَى البَيْتِ، وَكَانَتْ يَدُهَا مُضَمَّدَةً بِعَدَدٍ مِنَ الأَرْبِطَةِ وَالضِّمَادَاتِ الَّتِي كَانَ شَكْلُهَا غَرِيْباً.
فَسَأَلَهَا زَوْجُهَا الَّذِي بَدَا عَلَيْهِ القَلَقُ: "مَا الَّذِي أَصَابَكِ يَا حَبِيْبَتِي؟".
فَضَحِكَتْ (مَهَا) دُوْنَ أَنْ تَبْدُوَ عَلَيْهَا أَمَارَاتُ السُّرُوْرِ، ثُمَّ قَالَتْ: "لَقَدْ كَسَرَتْ تِلْمِيْذَتِي طَبَقاً مِنَ الحَسَاءِ السَّاخِنِ دُوْنَ قَصْدٍ فَوْقَ يَدِي، وَلَقَدْ تَأَلَّمْتُ بِشِدَّةٍ يَا زَوْجِيَ العَزِيْزَ، بَعْدَ ذَلِكَ ضَمَّدَ وَالِدُ التِّلْمِيْذَةِ يَدِي، وَلَمْ أَعُدْ أَشْعُرُ الآنَ بِالأَلَمِ أَبَداً".
فَسَأَلَهَا (مَازِنٌ): "مَا هَذَا يَا حَبِيْبَتِي؟" وَهُوَ يُمْسِكُ يَدَهَا بِحَنَانٍ وَعَطْفٍ، وَيَسْحَبُ بَعْضَ القِطَعِ القُمَاشِيَّةِ البَيْضَاءِ مِنْ تَحْتِ الضِّمَادَةِ.
رَدَّتْ (مَهَا): "يَبْدُو أَنَّهُ القماأحمد النَّاعِمُ الَّذِي وُضِعَ الزَّيْتُ فَوْقَهُ، لَكِنْ لَمْ أَسْأَلْكَ يَا زَوْجِيَ العَزِيْزَ، هَلْ بِعْتَ لَوْحَةً أُخْرَى؟" قَالَتْ ذَلِكَ بَعْدَمَا وَقَعَ نَظَرُهَا عَلَى النُّقُوْدِ المَوْضُوْعَةِ فَوْقَ الطَّاوِلَةِ.
فَقَالَ زَوْجُهَا: "مَتَى وَقَعَتِ الحَادِثَةُ يَا (مَهَا)؟"
أَجَابَتْ (مَهَا): "أَظُنُّ أَنَّهَا وَقَعَتْ عِنْدَ السَّاعَةِ الخَامِسَةِ".
رَدَّ (مَازِنٌ): "اِجْلِسِي هُنَا يَا زَوْجَتِي الحَبِيْبَةَ"، قَالَ ذَلِكَ وَهُوَ يُمْسِكُ بِيَدِهَا، وَيُحَاوِلُ أَنْ يُوْصِلَهَا إِلَى الأَرِيْكَةِ، ثُمَّ جَلَسَ بِجَانِبِهَا، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى كَتِفَيْهَا، ثُمَّ سَأَلَهَا: "مَاذَا كُنْتِ تَفْعَلِيْنَ طِيْلَةَ الأُسْبُوْعَيْنِ المَاضِيَيْنِ يَا (مَهَا)؟"
حَاوَلَتْ (مَهَا) أَنْ تُجِيْبَ عَلَى أَسْئِلَةِ زَوْجِهَا بِجُرْأَةٍ وَصَرَاحَةٍ فِي بِدَايَةِ الأَمْرِ، لَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ مُوَاصَلَةَ ذَلِكَ، فَانْفَجَرَتْ بَاكِيَةً، وَأَخَذَتْ تَعْتَرِفُ لَهُ بِقَوْلِهَا: "لَمْ أَسْتَطِعِ الحُصُوْلَ عَلَى أَيِّ تِلْمِيْذٍ، وَلَمْ أَكُنْ أَحْتَمِلُ فِكْرَةَ تَرْكِكَ عَالَمَ الفَنِّ، لِذَا عَمِلْتُ بِكَيِّ القُمْصَانِ فِي المَصْبَغَةِ، فَوَضَعَتْ إِحْدَى الفَتَيَاتِ المِكْوَاةَ عَلَى يَدِي خَطَأً، وَلَكِنْ هَلْ أَنْتَ غَاضِبٌ مِنِّي لِأَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ دُوْنَ عِلْمِكَ يَا زَوْجِيَ العَزِيْزَ؟ أَظُنُّ أَنَّهُ لَوْلَا عَمَلِي فِي ذَلِكَ المَكَانِ لَمَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبِيْعَ لَوْحَاتِكَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ الثَّرِيِّ، لَكِنْ مَا الَّذِي جَعَلَكَ تَشُكُّ فِي أَمْرِي؟"
أَجَابَهَا (مَازِنٌ): "لَمْ أَكُنْ أَشُكُّ فِيْكِ يَا عَزِيْزَتِي، وَلَمْ تُخَامِرْنِي الرِّيْبَةُ إِلَّا هَذِهِ اللَّيْلَةَ، وَلَمْ يَكُنْ بِوُسْعِي أَنْ أَعْرِفَ

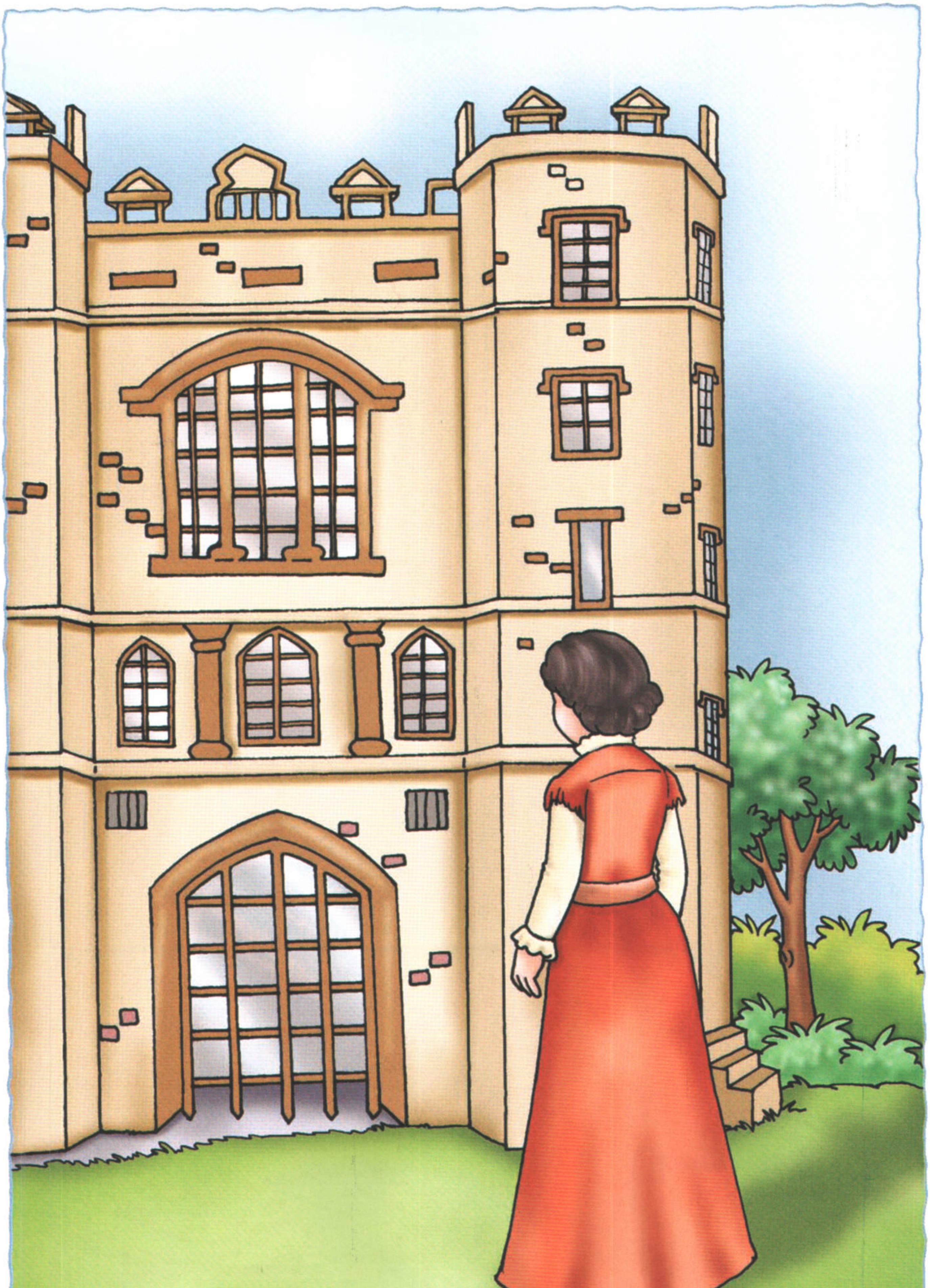
عَنْكِ كُلَّ ذَلِكَ إلّا مِنْكِ، فَقَدْ كُنْتُ أنا الشَّخْصَ الَّذي أرْسَلَ هَذِهِ الخِرْقَةَ القُطْنِيَّةَ مَعَ الزَّيْتِ مِنْ غُرْفَةِ المُحَرِّكِ؛ لِتَضْميدِ جُرْحِ فَتاةٍ أُحْرِقَتْ يَدُها بِالمِكْواةِ، وَكَانَتْ مَوْجُودَةً في الطّابَقِ العُلْوِيِّ مِنَ البِناءِ الَّذي كُنْتُ أعْمَلُ فيهِ، لَقَدْ كُنْتُ أعْمَلُ بِتَزْويدِ المُحَرِّكِ بِالوَقودِ في تِلْكَ المَصْبَغَةِ خِلالَ الأُسْبوعَيْنِ الماضِيَيْنِ".

فَقالَتْ (مَها) وَقَدْ فوجِئَتْ بِما سَمِعَتْهُ: "إذاً لَمْ تَكُنْ تُتابِعُ دُروسَكَ في الفَنِّ، ألَيْسَ كَذَلِكَ؟"

أجابَها زَوْجُها: "لا يا عَزيزَتي، فَقَدِ اخْتَلَقْتُ تِلْكَ القِصَّةَ كَما فَعَلْتِ أنْتِ".

وَهُنا انْفَجَرَ الاِثْنانِ بِالضَّحِكِ، فَقَدْ حاوَلَ كِلاهُما أنْ يُضَحِّيَ مِنْ أجْلِ الآخَرِ، وَأنْ يُقَدِّمَ ما بِوُسْعِهِ لإسْعادِهِ.





إليزابيث فراي

إذا سمعَ أيٌّ منا عَنْ مُجرِم تمَّ حَبْسُهُ في السِّجن، فأوَّلُ عبارَة يُطلقُها دوْنَ تفكيرٍ هِيَ: "إنَّهُ يَسْتحِقُّ ذلِكَ"، فَمُعاقبَةُ المُجْرِمينَ تُمثِّلُ مَصْدَرَ فرَحٍ لَنا؛ لأنَّ قُلوْبَنا تأبى أنْ تلينَ، وَتَرْفُضُ مِسْحَةَ التَّسامُح.

إلّا أنَّ مَشاعِرَ (إليزابيث) عِنْدَ وُقوْفِها خارِجَ السِّجْنِ كانَتْ تخْتلِفُ تمامَ الاخْتِلافِ عَنِ المَشاعِرِ الَّتي تحَدَّثْنا عنْها آنِفاً، فَقَدْ أخَذَتْ تُطالِعُ ذلِكَ البِناءَ الَّذي يَضُمُّ عَدَداً كبيراً مِنَ المُجْرِمينَ؛ لأنَّها كانَتْ تَشْعُرُ بِمَسؤُوْلِيَّتِها تُجاهَهُمْ، وَكانَتْ تَرْغَبُ في أنْ تُساعِدَهُمْ بِطَريْقَةٍ ما، لِذا قَرَّرَتْ أنْ تَمْنَحَهُمْ وَقْتَها وَعِنايَتَها، وَعَقَدَتِ العَزْمَ عَلى تَحْرِيرِهِمْ مِنْ أَسْرِهِمْ، وَلكِنَّ ما حَيَّرَها هُوَ الأَشْياءُ الَّتي يَجِبُ أنْ تُحَرِّرَهُمْ مِنْها؟ فَهَلْ تُحَرِّرُهُمْ مِنَ القُيُوْدِ المَفْرُوْضَةِ عَلى عُقُوْلِهِمْ، وَتَدْفَعُهُمْ لِارْتِكابِ المُوْبِقاتِ؟!! وَكَيْفَ يُمْكِنُها أنْ تَمُدَّ يَدَ العَوْنِ إلَيْهِمْ في سَبِيْلِ تَحْرِيْرِهِمْ وَفَكِّ أَسْرِهِمْ؟

إنَّنا -بِالتَّأْكِيْدِ- لا يُمْكِنُ أنْ نُحَرِّرَ السُّجَناءَ بِالتَّعامُلِ مَعَهُمْ عَلى أنَّهُمْ أَشْخاصٌ أَدْنى مَرْتَبَةً مِنْ بَقِيَّةِ البَشَرِ. كانَ السُّجَناءُ في سِجْنِ (نيوغيت) لا يَكادُوْنَ يَحْصُلُوْنَ عَلى كِفايَتِهِمْ مِنَ الطَّعامِ، كَما كانَ ذلِكَ السِّجْنُ يَفْتَقِرُ إلى أَقَلِّ أَساليبِ الرِّعايَةِ الطِّبِّيَّةِ، كَما كانَ السُّجَناءُ يَقْضُوْنَ أيّامَهُمْ داخِلَ زَنازِيْنَ قَذِرَةٍ وَخالِيَةٍ مِنْ مَصادِرِ التَّدْفِئَةِ أيّامَ الشِّتاءِ، ما يَجْعَلُها بارِدَةً جِدّاً.

لَقَدْ كانَ كُلُّ ما يَنْقُصُ السُّجَناءَ هُوَ الأَمَلُ، وَلا يُمْكِنُ أنْ يَتِمَّ ذلِكَ إلّا بِالاهْتِمامِ بِهِمْ، لِذا قَرَّرَتْ (إليزابيث) أنْ تَعْتَنِيَ بِهِمْ، وَتَهْتَمَّ بِأُمُوْرِهِمْ.

وَلكِنْ حِيْنَما خَطَتْ (إليزابيث) أوَّلَ خُطْوَةٍ لَها داخِلَ السِّجْنِ، شَعَرَتْ بِخَوْفٍ شَدِيْدٍ وَرَهْبَةٍ، وَكانَ يَلْزَمُها شِحْنَةٌ كَبِيْرَةٌ مِنَ الشَّجاعَةِ لِتَتَمَكَّنَ مِنَ التَّوَغُّلِ داخِلَ السِّجْنِ، كَما كانَ يَتَعَيَّنُ عَلَيْها أنْ تُبْدِيَ قَدْراً هائِلاً مِنَ الجُرْأَةِ لِتَتَمَكَّنَ مِنَ الاهْتِمامِ بِأُوْلئِكَ الأَشْخاصِ الَّذِيْنَ بَدَوْا مُسْتَعِدِّيْنَ لِقَتْلِها، إذْ لَمْ يَخْطُرْ في بالِها، وَلَمْ تَتَوَقَّعْ أنْ يَسْتَقْبِلُوْها بِصَيْحاتٍ، وَصَرَخاتٍ، وَقَهْقَهاتٍ كالسَّكارى أو المَجانِيْنِ، فَقَدْ كانَتْ تَمْلأُ المَمَرَّ الحَجَرِيَّ الَّذي يَسُوْدُهُ بَرْدٌ قارِسٌ، إضافَةً إلى رائِحَةِ العَرَقِ وَالقَذارَةِ الَّتي تَحْمِلُها الرِّيْحُ فَتَلْفَحُ وَجْهَها، بَلْ فاقَ كُلُّ ذلِكَ حُدُوْدَ تَوَقُّعاتِها.

وَعِنْدَما قادَها الحارِسُ إلى المَمَرِّ أَخَذَ الأَشْخاصُ الَّذِيْنَ احْتَشَدُوا وَراءَ قُضْبانِ الزِّنْزانَةِ يُحَدِّقُوْنَ فِيْها بِرُعْبٍ، لكِنَّها تَصَرَّفَتْ تَصَرُّفاً شُجاعاً حَقّاً، وَذلِكَ حِيْنَما طَلَبَتْ مِنَ الحارِسِ أنْ يَسْمَحَ لَها بِدُخُوْلِ الزِّنْزانَةِ، فَخالَ أنَّ لَوْثَةً مِنَ الجُنُوْنِ قَدْ أَصابَتْها، وَلكِنَّهُ لَمْ يَمْلِكْ إلّا أنْ يُوافِقَ أَمامَ إصْرارِها، غَيْرَ أنَّهُ حَذَّرَها مِنْ مَغَبَّةِ ذلِكَ، وَأَخْبَرَها بِأنَّهُ لَنْ يَكُوْنَ مَسْؤُوْلاً عَنْ أَمْنِها وَسَلامَتِها، وَذلِكَ لأنَّهُ يُمْكِنُ لِلسُّجَناءِ -حَسَبَ زَعْمِهِ- أنْ يُقَطِّعُوْها إرْباً إرْباً.

بَيْدَ أنَّها أَصَرَّتْ عَلى مَوْقِفِها، وَحِيْنَما دَخَلَتْ (إليزابيث) إلى الزِّنْزانَةِ دُهِشَ السُّجَناءُ جَمِيْعاً، وَسادَ الصَّمْتُ بَيْنَهُمْ، وَأَخَذُوا يُحَدِّقُوْنَ فِيْها بِأَعْيُنٍ مِلْؤُها الكُرْهُ وَالقَسْوَةُ، فَرَدَّتْ عَلَيْهِمْ بِنَظَراتٍ مِلْؤُها الحِكْمَةُ وَالهُدُوْءُ وَالثَّباتُ وَالرَّحْمَةُ وَالحَنانُ، كَما كانَتْ تَقاطِيْعُ وَجْهِها تَعْكِسُ صَفاءَ رُوْحِها، وَسُمُوَّ أَخْلاقِها وَقُوَّةَ شَخْصِيَّتِها، لِذا لَمْ يَمْلِكِ السُّجَناءُ إلّا أنْ يُقابِلُوْها بِالاحْتِرامِ وَالتَّقْدِيْرِ.

إِلَّا أَنَّ (إليزابيث) لَمْ تَكُنْ تُرِيْدُ مِنهُمْ أَنْ يَحْتَرِمُوْهَا فَحسْبُ، بَلْ كَانَتْ تَرْغَبُ بِمُصَادقَتِهِمْ أَيْضاً، وَلِذَا فَقَدْ أَخَذَتْ تَتَحَدَّثُ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ تَكُنْ تَتَطَرَّقُ إِلَى أَخْطَائِهِمْ وَجَرائِمِهِمْ فَقَطْ، بَلْ كَانَتْ تُكَلِّمُهُمْ عَنْ أُمُورٍ يُمْكِنُ أَنْ تُفِيْدَهُمْ يَوْماً مَا، فَقَدْ كَانَتْ تُنَاقِشُ مَعَهُمْ مُسْتَقْبَلَ الطُّفُوْلَةِ وَالعَالَمِ بَعْدَ أَنْ تَهْبِطَ فِيْهِ نِسَبُ الجَرِيْمَةِ، وَمِنْ ثَمَّ يَقِلُّ فِيْهِ عَدَدُ السُّجَنَاءِ.

كَمَا أَخَذَتْ (إليزابيث) تُحَدِّثُهُمْ عَنْ أَهَمِّيَّةِ المَدْرَسَةِ لِأَبْنَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ لِلْعِلْمِ أَهَمِّيَّةً كَبِيْرَةً فِي مُسَاعَدَةِ الأَطْفَالِ عَلَى تَمْيِيْزِ الحَقِّ مِنَ البَاطِلِ، وَالصَّوَابِ مِنَ الخَطَأِ، فَيَخْلُقُ ذَلِكَ الفُرْصَةَ وَالأَمَلَ لَدَيْهِمْ بِتَغَيُّرِ أَحْوَالِهِمْ نَحْوَ الأَفْضَلِ، إِذْ لَابُدَّ لِهَؤُلَاءِ الأَطْفَالِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا، وَمِنْ هَذَا البَابِ أَخَذَتْ (إليزابيث) تُزَوِّدُ السُّجَنَاءَ بِالكُتُبِ وَالمَوَادِّ الدِّرَاسِيَّةِ،





وَكثِيْراً مَا كَانَتْ تَجْلِسُ بَيْنَهُمْ وَتَقْرَأُ لأَطْفَالِهِمْ، وَلكِنْ لَمْ يَكُنْ بِمَقْدُوْرِ (إليزابيث) أَنْ تَفْتَتِحَ مَدْرَسَتَهَا دَاخِلَ السِّجْنِ إِلَّا بِمُسَاعَدَةِ السَّجِيْنَاتِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي فَعَلْنَ بِذلِكَ بِكُلِّ سُرُوْرٍ؛ وَذَلِكَ لِاهْتِمَامِهِنَّ بِمُسْتَقْبَلِ أَطْفَالِهِنَّ.

غَيْرَ أَنَّ السُّؤَالَ الَّذِي يَتَبَادَرُ إِلَى لأَذْهَانِ الآنَ هُوَ: هَلْ يُمْكِنُ لِهَؤُلَاءِ الأَشْخَاصِ أَنْ يُقَدِّمُوا المَعُوْنَةَ إِلَى غَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ؟ فَهُمْ أَنْفُسُهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى المُسَاعَدَةِ أَيْضاً، إِلَّا أَنَّ (إليزابيث) جَعَلَتْهُمْ يَطْمَحُوْنَ إِلَى مُسَاعَدَةِ غَيْرِهِمْ وَيَرْغَبُوْنَ فِي ذَلِكَ بِشِدَّةٍ؛ وَذَلِكَ لأَنَّهَا وَضَعَتْ ثِقَتَهَا الكَامِلَةَ فِيْهِمْ، إِذْ كَانَتْ تَطْلُبُ مِنْهُمْ مُسَاعَدَتَهَا لِتُؤَكِّدَ لَهُمْ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَادِرُوْنَ عَلَى مَدِّ يَدِ العَوْنِ وَفِعْلِ الخَيْرِ، وَهَذَا مَا دَعَا السُّجَنَاءَ فِيْمَا بَعْدُ لِاخْتِيَارِ مُعْتَقَلٍ كَانَ يَعْمَلُ مُعَلِّماً فِي إِحْدَى المَدَارِسِ لِيُعَلِّمَ أَبْنَاءَهُمْ وَبَنَاتِهِمْ فِي السِّجْنِ.

ثُمَّ الْتَفَتَتْ (إليزابيث) بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى النِّسَاءِ السَّجِيْنَاتِ، وَأَخَذَتْ تُعَلِّمُهُنَّ الحِيَاكَةَ لِيَتَمَكَّنَّ مِنْ كَسْبِ لُقْمَةِ عَيْشِهِنَّ بِعَرَقِ جَبِيْنِهِنَّ، وَلِيَبْتَعِدْنَ عَنْ طَرِيْقِ الجَرِيْمَةِ، وَهَكَذَا بَدَأَ النِّسْوَةُ يَكْسِبْنَ المَالَ دَاخِلَ السِّجْنِ، وَزَوَّدَتْهُنَّ (إليزابيث) بِالمَوَادِّ اللَّازِمَةِ لِلْعَمَلِ، ثُمَّ كَانَتْ تَأْخُذُ مُنْتَجَاتِهِنَّ وَتَبِيْعُهَا لِلْمَتَاجِرِ، وَتَدَّخِرُ المَالَ لَهُنَّ عِنْدَهَا، حَيْثُ كَانَ يُمْكِنُ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ أَنْ تَحْصُلَ عَلَى حِصَّتِهَا مِنْ تِلْكَ المُدَّخَرَاتِ عِنْدَ إِطْلَاقِ سَرَاحِهَا مِنَ السِّجْنِ.

هَذَا، وَلَمْ تَكُنْ (إليزابيث فراي) بِحَاجَةٍ لِبِنَاءِ شُهْرَتِهَا عَلَى حِسَابِ هَؤُلَاءِ السُّجَنَاءِ، فَقَدْ كَانَتْ تَنْحَدِرُ مِنْ أُسْرَةٍ عَرِيْقَةٍ، وَتَعِيْشُ حَيَاةً مُتْرَفَةً وَمُرَفَّهَةً، وَتَسْتَمْتِعُ بِحَيَاتِهَا دُوْنَ تِلْكَ التَّضْحِيَاتِ وَالجُهُوْدِ المُضْنِيَةِ كُلِّهَا، إِلَّا أَنَّهَا كَانَ لَدَيْهَا رَغْبَةٌ كَبِيْرَةٌ فِي العَطَاءِ؛ لأَنَّهَا كَانَتْ تَنْعَمُ بِالكَثِيْرِ مِنَ الخَيْرَاتِ، لِذَا كَانَتْ تُعْطِي بِسَخَاءٍ دُوْنَ أَنْ تَنْتَظِرَ أَيَّ مُقَابِلٍ.

قَرارُ (جُمانَةَ)

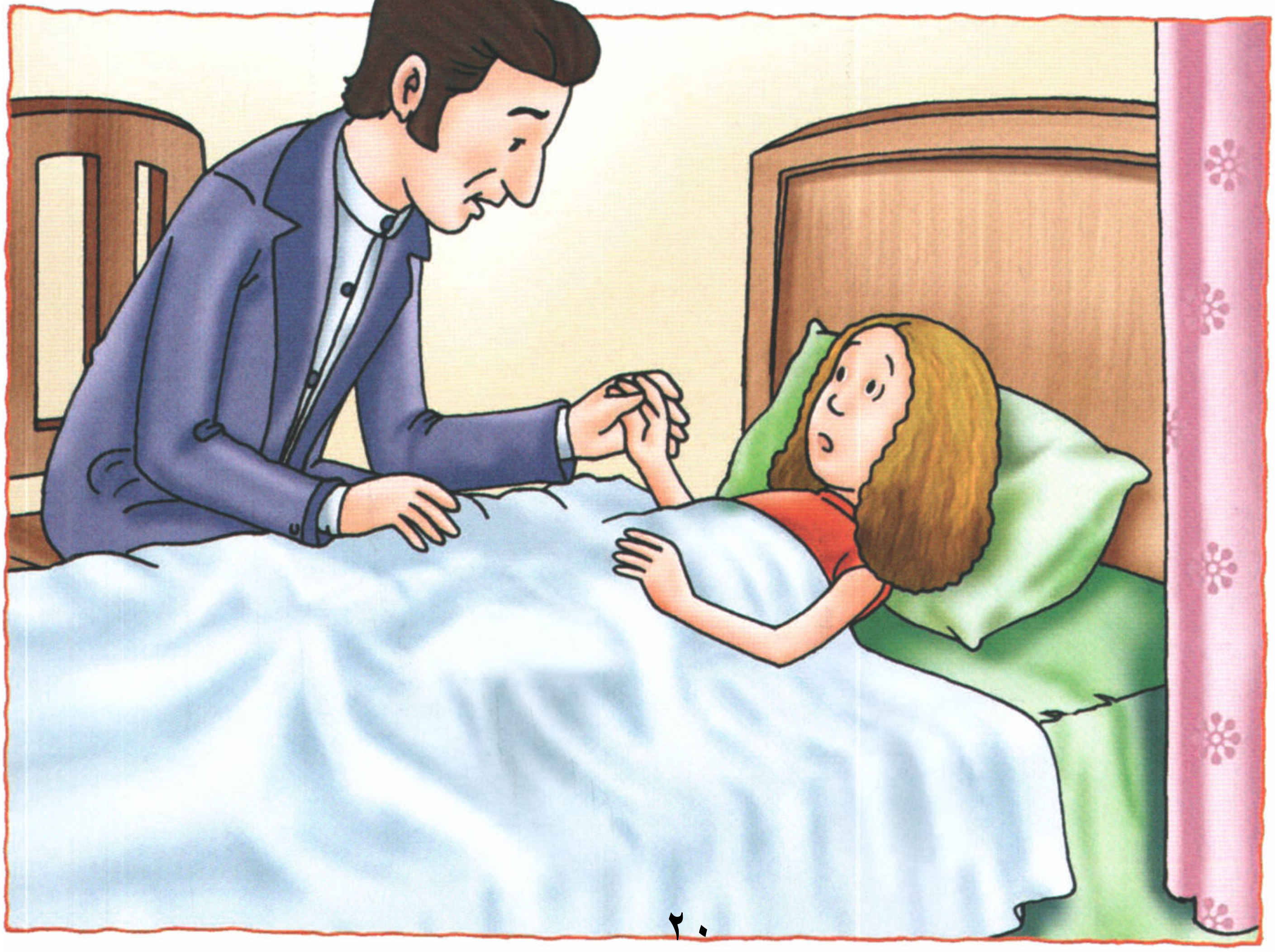
كَانَ لَدى المَنْدُوْبِ الحُكُوْمِيِّ في مُدِيْرِيَّةِ الأَرَاضِي اِبْنَةٌ تُدْعَى (جُمانَة)، وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ قَدْ كَرَّسَ حَيَاتَهُ كُلَّهَا مِنْ أَجْلِ اِبْنَتِهِ الَّتِي فَقَدَتْ وَالِدَتَهَا، وَذَلِكَ لِيُعَوِّضَهَا عَنْ حَنَانِ الأُمِّ الَّذِي حُرِمَتْ مِنْهُ، وَهَكَذَا نَشَأَتْ رَابِطَةٌ قَوِيَّةٌ بَيْنَ الأَبِ وَابْنَتِهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَفْكَارَهُمَا وَأَسَالِيْبَهُمَا كَانَتْ مُتَشَابِهَةً.

كَانَتْ (جُمَانَةُ) فَتَاةً حَصِيْفَةً ذَكِيَّةً، تُخَطِّطُ دَوْماً لِمَا هُوَ بَعِيْدٌ، وَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ وَهِيَ تَتَلَوَّى مِنْ شِدَّةِ الحُمَّى الَّتِي أَصَابَتْهَا قَالَتْ لِوَالِدِهَا: "أَبَتَاهُ! أَتَمَنَّى لَوْ كَانَ بِمَقْدُوْرِي فِعْلُ أَيِّ شَيْءٍ لِمُسَاعَدَةِ الأَطْفَالِ".

فَسَأَلَهَا أَبُوْهَا: "مَا الَّذِي تَرْغَبِيْنَ بِتَقْدِيْمِهِ لَهُمْ يَا عَزِيْزَتِي؟ أَتَوَدِّيْنَ أَنْ تُقِيْمِي لَهُمْ حَفْلَةً مَثَلاً؟"

"لَا، لَمْ أَقْصِدْ ذَلِكَ، بَلْ أَوَدُّ أَنْ أُقَدِّمَ شَيْئاً لِلْفُقَرَاءِ مِنَ الأَطْفَالِ الَّذِيْنَ لَا يَجِدُوْنَ بَيْتاً يُؤْوِيْهِمْ، وَلَيْسَ لَدَيْهِمْ مَنْ يُحِبُّهُمْ وَيَعْتَنِي بِهِمْ كَمَا تَفْعَلُ أَنْتَ الآنَ يَا أَبِي، وَأَرَى أَنِّي إِنْ لَمْ أَتَحَسَّنْ مِنْ مَرَضِي فَسَوْفَ أَتَبَرَّعُ لَهُمْ بِالعِنَايَةِ الَّتِي تُقَدِّمُهَا لِي، أَلَنْ تَعْتَنِيَ بِهِمْ يَا أَبَتِ مِنْ أَجْلِي؟"

رَدَّ الأَبُ: "لَا تَقُوْلِي ذَلِكَ يَا حَبِيْبَتِي! سَتَتَحَسَّنُ حَالُكِ عَمَّا قَرِيْبٍ، وَعِنْدَهَا سَنُفَكِّرُ بِمَا يُمْكِنُ تَقْدِيْمُهُ لِهَؤُلَاءِ الأَطْفَالِ".



وَلَكِنْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ اشْتَدَّ المَرَضُ عَلَى (جُمَانَة) المِسْكِيْنَةِ الَّتِي هَدَّهَا التَّعَبُ، وَأَضْنَى جَسَدَهَا الضَّعِيْفَ الَّذِي لَمْ يَعُدْ يَقْوَى عَلَى المُقَاوَمَةِ، فَأَسْلَمَتِ الرُّوْحَ، وَتُوُفِّيَتْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ.

وَبَعْدَ مُرُوْرِ أُسْبُوْعٍ عَلَى وَفَاتِهَا عَادَ وَالِدُهَا إِلَى عَمَلِهِ، فَوَجَدَ مَكْتَبَهُ قَدِ امْتَلأَ بِالمَلَفَّاتِ الَّتِي تَكَدَّسَتْ خِلَالَ الشَّهْرِ المَاضِي الَّذِي انْقَطَعَ فِيْهِ عَنْ عَمَلِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ عَصِيْباً جِدّاً، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّخِذَ قَرَارَاتٍ بِشَأْنِ بَعْضِ الأَرَاضِي، وَذَلِكَ خِدْمَةً لِأَغْرَاضٍ مُخْتَلِفَةٍ.

لِذَا حَاوَلَ الأَبُ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنْ أَحْزَانِهِ قَدْرَ المُسْتَطَاعِ، وَأَنْ يُقْبِلَ عَلَى عَمَلِهِ بِصَمْتٍ، وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ بِالعَمَلِ طَلَبَ مِنَ البَوَّابِ أَنْ يَنْقُلَ أَحَدَ المَقَاعِدِ الجِلْدِيَّةِ إِلَى المُسْتَوْدَعِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ ذَلِكَ الكُرْسِيَّ كَانَ يُذَكِّرُهُ بِابْنَتِهِ (جُمَانَة) الَّتِي كَانَتْ تَجْلِسُ عَلَيْهِ كُلَّمَا أَتَتْ لِزِيَارَتِهِ فِي مَكْتَبِهِ.

وَمَعَ الأَيَّامِ تَحَوَّلَ المَنْدُوْبُ الحُكُوْمِيُّ إِلَى رَجُلٍ صَامِتٍ وَمُتَزَمِّتٍ، وَلَمْ يَعُدْ يَحْتَمِلُ وُجُوْدَ أَيِّ طِفْلٍ فِي المَكَانِ الَّذِي يُوْجَدُ فِيْهِ أَبَداً، كَمَا أَخَذَ يَتَجَنَّبُ المُرُوْرَ قُرْبَ أَطْفَالِ المَدَارِسِ أَثْنَاءَ عُبُوْرِهِ لِلشَّارِعِ، فَلَمْ يَكُنْ يُرِيْدُ أَنْ يَرَاهُمْ وَهُمْ يَتَرَاقَصُوْنَ فِي مَجْمُوْعَاتٍ فَرَحاً وَسُرُوْراً.

وَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ دَخَلَتْ مَجْمُوْعَةُ "مُسْتَمْلِكِي الأَرَاضِي" إِلَى مَكْتَبِ المَنْدُوْبِ، وَهِيَ مَجْمُوْعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِيْنَ يَبْحَثُوْنَ عَنِ الأَرَاضِي الَّتِي لَمْ تَرِدْ فِي الخَرَائِطِ وَالمُخَطَّطَاتِ الرَّسْمِيَّةِ، لِتُصْبِحَ مُلْكاً لِلدَّوْلَةِ.

فَمَعَ ازْدِيَادِ تَعْدَادِ السُّكَّانِ دَاخِلَ الدَّوْلَةِ تَرْتَفِعُ أَسْعَارُ الأَرَاضِي، وَتُحَاوِلُ مَجْمُوْعَةُ "مُسْتَمْلِكِي الأَرَاضِي" أَنْ تَجِدَ أَرَاضِيَ لَيْسَتْ مُلْكاً لِأَحَدٍ مِنَ النَّاحِيَةِ القَانُوْنِيَّةِ.

بَيْدَ أَنَّهُ غَالِباً مَا تَكُوْنُ تِلْكَ الأَرَاضِي الَّتِي يَجِدُهَا "مُسْتَمْلِكُو الأَرَاضِي" مُلْكاً لِمُوَاطِنِيْنَ مَسَاكِيْنَ، عَمِلُوا بِجِدٍّ سَنَوَاتٍ طَوِيْلَةً إِلَى أَنْ تَمَكَّنُوا مِنْ بِنَاءِ بُيُوْتِهِمْ فَوْقَ تِلْكَ الأَرَاضِي، وَكَانَتِ الصَّدْمَةُ تُصِيْبُ هَؤُلَاءِ حِيْنَمَا يَتَسَلَّمُ كُلٌّ مِنْهُمْ إِنْذَاراً بِإِخْلَاءِ الأَرْضِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَعْنِي أَنَّهُمْ قَدْ أَصْبَحُوا مُشَرَّدِيْنَ بِلَا مَأْوَى وَلَا بَيْتٍ يَعِيْشُوْنَ تَحْتَ سَقْفِهِ، وَمِنْ هُنَا نَشَأَتْ طَبَقَةٌ كَبِيْرَةٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الأَشْخَاصِ الَّذِيْنَ شُرِّدُوْا، وَفَقَدُوا كُلَّ أَمَلٍ فِي الحَيَاةِ، وَقَدْ طَالَ التَّشَرُّدُ أَطْفَالَهُمْ أَيْضاً الَّذِيْنَ أَضْنَاهُمُ الجُوْعُ، فَكَانَتْ دُمُوْعُهُمْ هِيَ الأُسْلُوْبَ الوَحِيْدَ الَّذِي يُعَبِّرُ عَمَّا أَلَمَّ بِهِمْ مِنْ حُزْنٍ وَخَيْبَةِ أَمَلٍ.

وَمِنَ الحَالَاتِ الَّتِي جَاءَتْ فِي عَمَلِيَّاتِ اسْتِمْلَاكِ الأَرَاضِي حَالَةُ قِطْعَةِ أَرْضٍ تَبْلُغُ مِسَاحَتُهَا مِيْلاً بِثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ، وَكَانَتْ تَمْتَدُّ عَلَى طُوْلِ أَحَدِ الأَنْهَارِ، إِلَّا أَنَّ إِحْدَى الشَّرِكَاتِ الَّتِي يَمْلِكُهَا أَحَدُ "مُسْتَمْلِكِي الأَرَاضِي" بَدَأَتْ بِالضَّغْطِ عَلَى المَنْدُوْبِ لِإِخْلَاءِ تِلْكَ الأَرْضِ مِنْ سَاكِنِيْهَا، فَاحْتَجُّوا عَلَى هَذَا التَّصَرُّفِ الجَائِرِ.

وَمِنْ رَسَائِلِ الاحْتِجَاجِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَى المَنْدُوْبِ رِسَالَةٌ بَعَثَتْ بِهَا أَرْمَلَةٌ، كَانَ جَدُّهَا قَدْ بَاعَ كُلَّ مَا يَمْلِكُهُ لِشِرَاءِ تِلْكَ الأَرْضِ، وَكَذَلِكَ فَعَلَتْ وَالِدَتُهَا مِنْ بَعْدِهِ، ثُمَّ جَاءَتْ هِيَ لِتَبِيْعَ جُزْءاً مِنْ تِلْكَ الأَرْضِ لِتَتَحَمَّلَ أَعْبَاءَ العَيْشِ، وَقَدْ خَتَمَتْ تِلْكَ الأَرْمَلَةُ رِسَالَتَهَا بِخَاتِمَةٍ حَزِيْنَةٍ مُؤَثِّرَةٍ قَالَتْ فِيْهَا: "لَدَيَّ ثَمَانِيَةُ أَطْفَالٍ،



أَكْبَرُهُمْ فِي الخَامِسَةَ عَشْرَةَ، وَأَنَا أَعْمَلُ طِيْلَةَ النَّهارِ، وَنِصْفَ فَتْرَةِ اللَّيْلِ لِأَتَمَكَّنَ مِنْ حَرْثِ قِطْعَةِ الأَرْضِ الصَّغِيْرَةِ المُتَبَقِّيَةِ، وَلِأَسْتَطِيْعَ إِطْعَامَ أَوْلَادِي، وَلَنْ أُخْبِرَكَ عَنِ الجَفَافِ الَّذِي يَقْضِي عَلَى المَحَاصِيْلِ كُلَّ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّنَا لَا نَحْصُلُ عَلَى مَا يَكْفِيْنَا مِنْ طَعَامٍ أَيَّامَ الجَفَافِ.

سَيِّدي المَنْدُوْب:

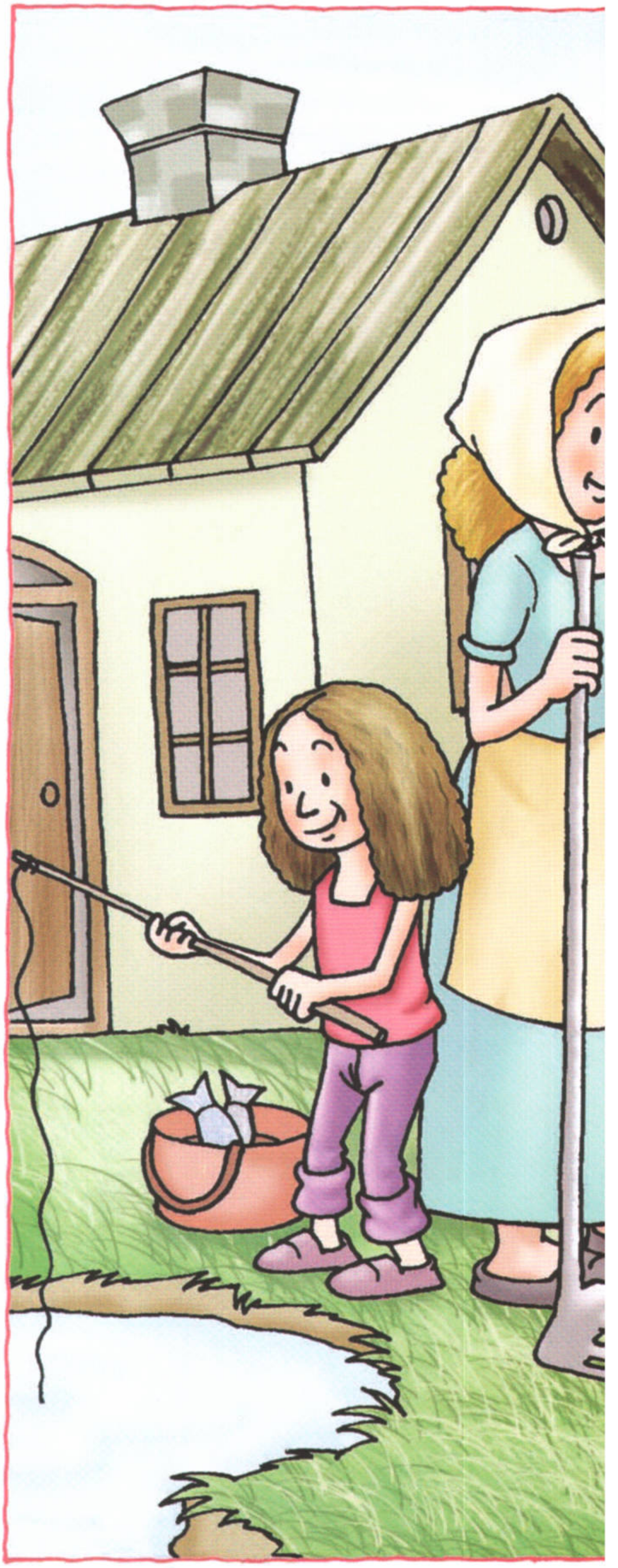
إِذا سَمَحْتَ لـ"مُسْتَمْلِكِيْ الأَرَاضِي" بِسَرِقَةِ السَّقْفِ الَّذي يُؤْوِيْنَا أَنَا وَأَطْفَالِي، وَاغْتِصَابِ مَصْدَرِ الرِّزْقِ اليَسِيْرِ الَّذي نَعِيْشُ عَلَيْه، عِنْدَهَا سَأَعُدُّ كُلَّ مَنْ يَصِفُ هَذِهِ الدَّوْلَةَ بِالعَظَمَةِ وَالعَدَالَةِ شَخْصاً كَاذِباً وَدَجَّالاً".

وَلَقَدْ تَأَثَّرَ المَنْدُوْبُ بِتِلْكَ الرِّسَالَةِ كَثِيْراً إِلَى دَرَجَةِ أَنَّهُ قَرَأَهَا مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ وَضَعَهَا جَانِباً وَهُوَ يَتَنَهَّدُ، فَقَدْ كَانَ يَصِلُهُ عَدَدٌ كَبِيْرٌ مِنْ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الرَّسَائِلِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَنَفِّذُ مَهَامَّهُ بِاسْمِ الحُكُوْمَةِ، رَغْمَ إِحْسَاسِهِ العَمِيْقِ بِأَنَّهُ كَانَ مَسْؤُوْلاً عَنْ مُعَانَاةِ هَؤُلاءِ الأَشْخَاصِ، وَمَا زَالَ هَذَا الإِحْسَاسُ يُلازِمُهُ طِيْلَةَ الوَقْتِ.

وَهَذَا مَا دَفَعَهُ إِلَى اسْتِدْعَاءِ السَّيِّدِ (أَحْمَدَ) الَّذي كَانَ مَسْؤُوْلاً عَنْ أَرَاضِي المَدَارِسِ، وَكَانَ يَنْظُرُ نَظْرَةَ عَدَاءٍ إِلَى "مُسْتَمْلِكِيْ الأَرَاضِي"؛ لِأَنَّهُ أَحَدُ هَؤُلاءِ الأَشْخَاصِ الَّذِيْنَ يَقْطُنُوْنَ فِي بُيُوْتٍ عُمِّرَتْ فَوْقَ تِلْكَ الأَرَاضِي.

وَحَالَ حُضُوْرِهِ إِلَيْهِ بَادَرَهُ المَنْدُوْبُ بِقَوْلِهِ: "أَعْرِفُ أَنَّكَ عَمِلْتَ فِي الأَرَاضِي المُمْتَدَّةِ عَلَى طُوْلِ النَّهْرِ فِي تِلْكَ المُقَاطَعَةِ، لِذَا أَوَدُّ أَنْ تُحَدِّثَنِي عَنْ نَوْعِيَّةِ الأَرَاضِي هُنَاكَ".

أَجَابَ السَّيِّدُ (أَحْمَدُ): "إِنَّها أَرَاضٍ رَائِعَةٌ بِالفِعْلِ يَا سَيِّدِي، فَالوَادِي هُنَاكَ غَنِيٌّ بِالثَّرْوَاتِ، وَثَمَّةَ عَشَرَاتُ البُيُوْتِ الَّتِي بُنِيَتْ فَوْقَ تِلْكَ الأَرَاضِي، وَأُلْحِقَتْ بِهَا طَوَاحِيْنُ هَوَائِيَّةٌ وَحَدَائِقُ وَبَسَاتِيْنُ، غَيْرَ أَنَّ مَالِكِيْهَا يَعِيْشُوْنَ فِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، وَلَمْ أَرَ فِي حَيَاتِي مَنْ هُوَ أَكْثَرُ



مِنْهُمْ ذُرِّيَّةً وَرَغْبَةً فِي إِنْجَابِ الأَطْفَالِ".

عِنْدَهَا رَدَّ عَلَيْهِ المَنْدُوْبُ بِقَوْلِهِ: "أَشْكُرُكَ سَيِّدُ (أَحْمَدُ)، يُمْكِنُكَ أَنْ تَنْصَرِفَ فَلَنْ أُؤَخِّرَكَ عَنْ عَمَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ".

وَخِلَالَ فَتْرَةٍ مَا بَعْدَ الظَّهِيْرَةِ قَدِمَ الشَّرِيْكَانِ اللَّذَانِ يَمْلِكَانِ إِحْدَى الشَّرِكَاتِ المُسْتَمْلِكَةِ لِلأَرَاضِي إِلَى

مَكْتَبِ المَنْدُوْبِ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَتَمَتَّعُ بِجَسَدٍ قَوِيٍّ، وَوَسَامَةٍ فَرِيْدَةٍ، وَسِمَةُ الغِنَى وَاليَسَارِ بَادِيَةٌ عَلَيْهِمَا، فَدَخَلَا مَكْتَبَ المَنْدُوْبِ، وَجَلَسَا دُوْنَ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُمَا المَنْدُوْبُ ذَلِكَ، ثُمَّ بَدَأَا بِالحَدِيْثِ عَنِ الطَّقْسِ بِكُلِّ دَمَاثَةٍ وَلُطْفٍ.

إِلَّا أَنَّ المَنْدُوْبَ عَرَفَ سَبَبَ قُدُوْمِهِمَا وَغَايَتَهُ، فَقَدْ وَعَدَهُمَا بِتَقْرِيْرِ مَصِيْرِ الأَرَاضِي المُمْتَدَّةِ عَلَى طُوْلِ النَّهْرِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ.

بَعْدَ ذَلِكَ دَخَلَ كَبِيْرُ المُوَظَّفِيْنَ إِلَى المَكْتَبِ، وَأَخْبَرَ المَنْدُوْبَ أَنَّ أَحَدَ المَسْؤُوْلِيْنَ فِي الدَّوْلَةِ يُعِدُّ الآنَ مُخَطَّطاً جَدِيْداً لِتِلْكَ المُقَاطَعَةِ الَّتِي يَمُرُّ النَّهْرُ مِنْهَا.

عِنْدَهَا قَالَ المَنْدُوْبُ: "سَأُتَابِعُ المَوْضُوْعَ بِنَفْسِي"، وَمِنْ ثَمَّ خَرَجَ مِنْ مَكْتَبِهِ.

وَعِنْدَمَا دَخَلَ إِلَى الغُرْفَةِ المُجَاوِرَةِ وَجَدَ خَمْسَةَ أَوْ سِتَّةَ أَشْخَاصٍ مِمَّنْ تَخَصَّصُوا بِرَسْمِ الخَرَائِطِ وَإِعْدَادِ وَثَائِقِهَا مُجْتَمِعِيْنَ حَوْلَ ذَلِكَ المَسْؤُوْلِ، وَقَدْ بَدَا عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَتَنَاقَشُوْنَ فِي أَمْرٍ مَا، إِلَّا أَنَّهُمْ سَرْعَانَ مَا تَفَرَّقُوا حِيْنَمَا رَأَوُا المَنْدُوْبَ، وَعِنْدَهَا نَظَرَ المَسْؤُوْلُ إِلَيْهِ نَظْرَةَ اعْتِذَارٍ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ مَا فَعَلَهُ.

وَلَكِنْ مَاذَا كَانَ يَعْنِي بِذَلِكَ؟ لَمْ يَكُنِ المَنْدُوْبُ بِحَاجَةٍ لِأَنْ يَسْأَلَهُ ذَلِكَ السُّؤَالَ، فَقَدْ شَحَبَ لَوْنُهُ، وَتَجَهَّمَ حِيْنَمَا أَخَذَ يُدَقِّقُ فِي الخَارِطَةِ الجَدِيْدَةِ المُثْبَتَةِ فَوْقَ طَاوِلَةِ أَحَدِ مُعِدِّي الخَرَائِطِ، وَفَجْأَةً ارْتَسَمَ أَمَامَهُ وَجْهُ ابْنَتِهِ (جُمَانَةَ)، وَرَآهُ ضِمْنَ خُطُوْطِ مَجْرَى النَّهْرِ المُتَعَرِّجِ.

أَقْعَدَتِ الدَّهْشَةُ المَنْدُوْبَ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَنِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ حَالَةً مِنَ الذُّهُوْلِ أَصَابَتْهُ لِشِدَّةِ التَّشَابُهِ بَيْنَ مَا رَآهُ وَبَيْنَ وَجْهِ ابْنَتِهِ الجَمِيْلَةِ النَّاعِمَةِ، بَعْدَ ذَلِكَ طَلَبَ المَنْدُوْبُ إِحْضَارَ مِلَفِّ تِلْكَ المُقَاطَعَةِ إِلَى مَكْتَبِهِ.



وَحِيْنَمَا وَصَلَ المَلَفُّ إِلَى مَكْتَبِهِ، خَطَّ المَنْدُوْبُ بِضْعَ كَلِمَاتٍ فِيْهِ، ثُمَّ وَقَعَ عَلَيْهَا، وَنَهَضَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ مَكَانِهِ، وَوَقَفَ أَمَامَ النَّافِذَةِ مُتَأَمِّلاً، فَوَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَى المَقْبَرَةِ حَيْثُ دُفِنَتِ ابْنَتُهُ (جُمَانَةُ) الَّتِي كَانَ قَلْبُهَا الطُّفُوْلِيُّ تَوَّاقاً إِلَى مُسَاعَدَةِ الآخَرِيْنَ وَمَدِّ يَدِ العَوْنِ إِلَيْهِمْ، لَقَدْ كَانَ قَلْبُهَا الصَّغِيْرُ كَبِيْراً بِرَغْبَتِهَا فِي العَطَاءِ وَمُسَاعَدَةِ الأَطْفَالِ الفُقَرَاءِ، وَعِنْدَهَا أَخَذَ المَنْدُوْبُ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ فِي سِرِّهِ: "لَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ رَغْبَتَهَا الأَخِيْرَةَ الَّتِي أَهْمَلْتُهَا وَتَجَاهَلْتُهَا طِيْلَةَ تِلْكَ المُدَّةِ".

بَعْدَ ذَلِكَ بَدَأَ المَنْدُوْبُ يَتَحَدَّثُ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ، وَأَعْطَى حُكْمَهُ فِي تِلْكَ القَضِيَّةِ وَذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

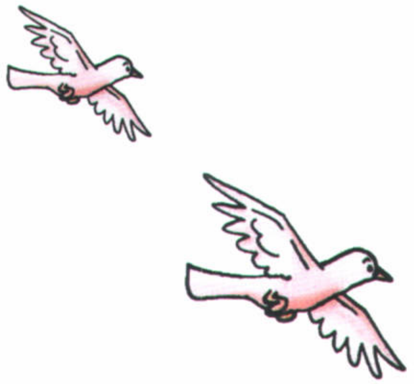
"أَيُّهَا السَّادَةُ! اِسْمَحُوا لِي أَنْ أُقَدِّمَ خَالِصَ اِعْتِذَارِي لَكُمْ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ مَكْتَبَنَا لَنْ يَنْظُرَ فِي دَعْوَاكُمْ بِخُصُوْصِ تِلْكَ الأَرْضِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ قَانُوْنِيَّةً أَصْلاً".

وَبِتِلْكَ الكَلِمَاتِ تَأَكَّدَ المَنْدُوْبُ أَنَّهُ قَدْ أَعَادَ السَّلَامَ وَالطُّمَأْنِيْنَةَ إِلَى عَشَرَاتِ الآلَافِ مِنْ بُيُوْتِ النَّاسِ.

وَخِلَالَ الصَّمْتِ الَّذِي أَعْقَبَ كَلَامَهُ تَسَرَّبَتْ أَصْوَاتُ ضَحِكٍ مِنْ غُرْفَةِ الشَّهَادَاتِ الَّتِي تَقَعُ فِي الطَّابَقِ السُّفْلِيِّ، وَكَانَ الشَّخْصُ الَّذِي حَمَلَ المَلَفَّ الخَاصَّ بِالمُقَاطَعَةِ هُوَ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ قَالَ لِزُمَلَائِهِ فِي العَمَلِ: "أُنْظُرُوا هُنَا! لَقَدْ نَسِيَ العَجُوْزُ أَنْ يُوَقِّعَ بِاسْمِهِ، وَوَقَّعَ بِاسْمِ (جُمَانَةَ)".

وَلَكِنْ حَتَّى وَلَوْ كَانَ مَا فَعَلَهُ ذَلِكَ المَسْؤُوْلُ مُصَادَفَةً سَعِيْدَةً فَحَسْبُ، أَوْ أَنَّ تِلْكَ الخُطُوْطَ الَّتِي تُمَثِّلُ مَجْرَى النَّهْرِ قَدْ رَسَمَتْ وَجْهَ (جُمَانَةَ) الصَّغِيْرَ مُصَادَفَةً، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَا يُلْغِي أَثَرَ المَعْرُوْفِ الَّذِي أُسْدِيَ إِلَى مَجْمُوْعَةٍ كَبِيْرَةٍ مِنَ الأَطْفَالِ، وَهَذَا مَا تَمَنَّتْهُ (جُمَانَةُ) وَهِيَ تُحْتَضَرُ.

وَلِهَذَا سُمِّيَ هَذَا القَرَارُ بِاسْمِهَا، وَأَصْبَحَ يُعْرَفُ بِقَرَارِ (جُمَانَةَ).



حَيْثُ نَجِدُ المَحَبَّةَ نَلْقَى اللهَ

كَانَ (مارتن أفيديتش) يَعْمَلُ إِسْكَافاً، وَكَانَ يَسْعَى جاهِداً لِتَأْمِيْنِ قُوْتِ يَوْمِهِ، كَما كَانَ رَجُلاً مُتَدَيِّناً أَيْضاً، إِذْ كَانَ يَحْمِلُ مِصْباحَهُ بَعْدَ أَنْ يَنْتَهِيَ مِنَ العَمَلِ، وَيَتَفَرَّغُ لِلْقِراءَةِ في الكِتَابِ المُقَدَّسِ.

وَفي أَحَدِ الأَيَّامِ، بَيْنَما كَانَ (مارتن) يَقْرَأُ في الكِتَابِ المُقَدَّسِ صادَفَ جُمْلَةً تَقُوْلُ: "مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ، أَدِرْ لَهُ الأَيْسَرَ، وَمَنْ أَخَذَ عَباءَتَكَ، فَأَعْطِهِ رِداءَكَ".

لَقَدْ جَعَلَتْ تِلْكَ الكَلِماتُ (مارتن) يُفَكِّرُ في الطَّرِيْقَةِ الَّتِي سَيَتَصَرَّفُ بِهَا إِنْ زَارَهُ أَحَدُ الرِّجالِ الصَّالِحِيْنَ في دارِهِ، فَغَلَبَهُ النَّوْمُ أَثْناءَ وُرُوْدِ تِلْكَ الأَفْكارِ عَلَى خاطِرِهِ، فَسَمِعَ في مَنامِهِ صَوْتاً يُنادِيْهِ قائِلاً: "(مارتن)! راقِبِ الطَّرِيْقَ جَيِّداً، لِأَنِّي سَأَزُوْرُكَ في الغَدِ".





عِنْدَهَا اِسْتَيْقَظَ (مارتن) مِنْ نَوْمِهِ عَلَى الفَوْرِ، وَأَخَذَ يَفْرُكُ عَيْنَيْهِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَرَ أَحَداً أَمَامَهُ، لِذَا عَادَ إِلَى النَّوْمِ مِنْ جَدِيْدٍ.

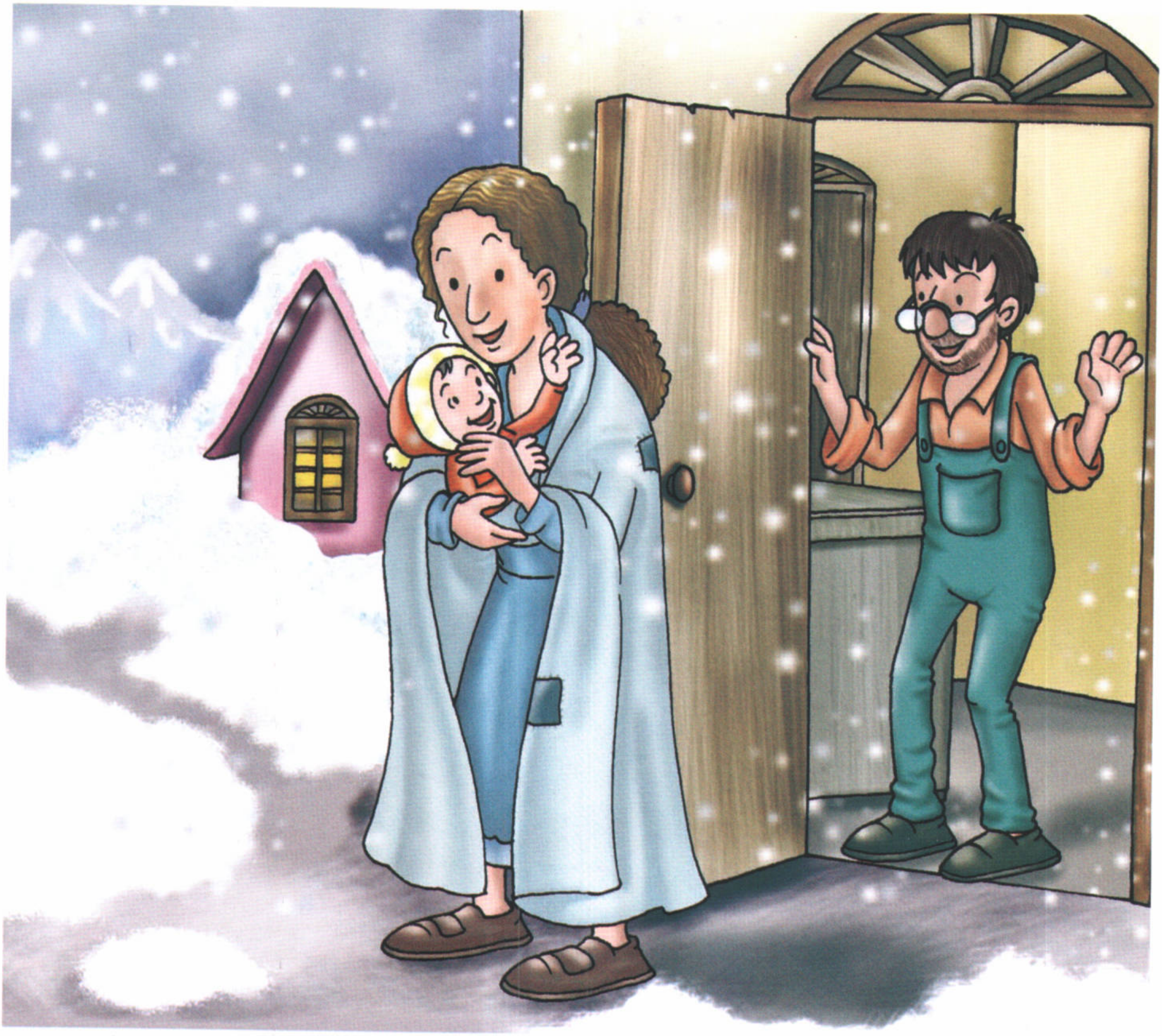
وَفِي صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِي نَهَضَ (مارتن) مِنْ نَوْمِهِ، وَخَرَجَ لِيُؤَدِّيَ أَعْمَالَهُ الاعْتِيَادِيَّةَ الَّتِي يُمَارِسُهَا كُلَّ يَوْمٍ، ثُمَّ خَطَرَ لَهُ أَنْ يَعْمَلَ قُرْبَ النَّافِذَةِ، فَكَانَ يُرَاقِبُ الطَّرِيْقَ أَكْثَرَ مِنْ تَرْكِيْزِهِ عَلَى عَمَلِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَنْتَظِرُ قُدُوْمَ ذَلِكَ الشَّخْصِ الَّذِي خَاطَبَهُ فِي مَنَامِهِ، وَقَدْ مَرَّ أَشْخَاصٌ كَثِيْرُوْنَ قُرْبَ نَافِذَتِهِ إِلَى أَنْ وَصَلَ جُنْدِيٌّ طَاعِنٌ فِي السِّنِّ وَبِيَدِهِ مِجْرَفَةٌ، وَوَقَفَ قُرْبَ النَّافِذَةِ، ثُمَّ بَدَأَ يُزِيْحُ الثَّلْجَ الَّذِي تَرَاكَمَ قُرْبَ بَيْتِ (مارتن)، وَبَعْدَ مُدَّةٍ قَصِيْرَةٍ مِنَ العَمَلِ أَسْنَدَ ذَلِكَ الجُنْدِيُّ ظَهْرَهُ إِلَى الحَائِطِ، فَقَدْ هَدَّهُ التَّعَبُ، وَلَمْ يَعُدْ يَقْوَى حَتَّى عَلَى إِزَالَةِ الثُّلُوْجِ المُتَرَاكِمَةِ.

لِذَلِكَ قَرَّرَ (مارتن) دَعْوَتَهُ لِاحْتِسَاءِ كُوْبٍ مِنَ الشَّايِ مَعَهُ، فَصَاحَ بِهِ قَائِلاً: "أُدْخُلْ إِلَى بَيْتِي يَا عَمُّ لِتَنْعَمَ بِالدِّفْءِ قَلِيْلاً، لَابُدَّ أَنَّكَ تَشْعُرُ بِالبَرْدِ".

فَأَجَابَهُ الرَّجُلُ العَجُوْزُ: "بَارَكَ اللهُ فِيْكَ"، ثُمَّ دَخَلَ إِلَى مَنْزِلِهِ بَعْدَمَا نَفَضَ عَنْهُ بَقَايَا الثَّلْجِ،

كَمَا نَظَّفَ حِذَاءَهُ خَوْفاً مِنْ أَنْ يُخَلِّفَ مُرُوْرُهُ بُقَعاً عَلَى الأَرْضِيَّةِ، بَيْدَ أَنَّهُ تَعَثَّرَ، وَكَادَ يَسْقُطُ عِنْدَ فِعْلِهِ ذَلِكَ.
فَقَالَ لَهُ (مارتن): "لَا تُزْعِجْ نَفْسَكَ بِذَلِكَ، لِأَنَّنِي سَأُنَظِّفُ الأَرْضِيَّةَ فِي وَقْتٍ لَاحِقٍ".
ثُمَّ صَبَّ (مارتن) الشَّايَ فِي قَدَحَيْنِ، وَأَعْطَى أَحَدَهُمَا لِضَيْفِهِ، غَيْرَ أَنَّ (مارتن) وَاصَلَ المُرَاقَبَةَ مِنَ النَّافِذَةِ أَثْنَاءَ شُرْبِ الشَّايِ مَعَ الضَّيْفِ. فَسَأَلَهُ الضَّيْفُ: "هَلْ تَتَوَقَّعُ قُدُوْمَ أَحَدٍ؟"
أَجَابَ (مارتن): "أَشْعُرُ بِالخَجَلِ مِنْ هَذَا المَوْضُوْعِ، وَلَا أَجِدُ رَغْبَةً فِي الحَدِيْثِ عَنْ ذَلِكَ، فَأَنَا لَا أَتَوَقَّعُ قُدُوْمَ أَيِّ أَحَدٍ الآنَ، لَكِنَّنِي خِلَالَ اللَّيْلَةِ المَاضِيَةِ سَمِعْتُ شَيْئاً وَلَمْ يَعُدْ بِإِمْكَانِي نِسْيَانُ مَا قِيْلَ لِي"، ثُمَّ أَخَذَ يَرْوِي لِلرَّجُلِ العَجُوْزِ قِصَّةَ الصَّوْتِ الَّذِي سَمِعَهُ، وَمَاذَا قَالَ لَهُ، وَكَيْفَ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ غَبِيٌّ كُلَّمَا تَذَكَّرَ ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَزَالُ يَنْتَظِرُ قُدُوْمَ ذَلِكَ الشَّخْصِ الصَّالِحِ.
وَبَعْدَمَا انْتَهَى الزَّائِرُ مِنِ احْتِسَاءِ عَدَدٍ مِنْ أَقْدَاحِ الشَّايِ نَهَضَ مِنْ مَكَانِهِ لِيَعُوْدَ أَدْرَاجَهُ، وَأَخَذَ يَشْكُرُ (مارتن) بِقَوْلِهِ: "شُكْراً لَكَ يَا (مارتن) لِأَنَّكَ قَدَّمْتَ لِيَ الطَّعَامَ وَالرَّاحَةَ، فَأَسْعَدْتَ بِذَلِكَ رُوْحِي وَجَسَدِي".
فَأَجَابَهُ (مارتن): "لَكَمْ سَعِدْتُ بِقُدُوْمِكَ، وَآمُلُ أَنْ تَأْتِيَ لِزِيَارَتِي كُلَّمَا سَنَحَتْ لَكَ الفُرْصَةُ".
وَبَعْدَ خُرُوْجِ الضَّيْفِ أَعَادَ (مارتن) مَجْمُوْعَةَ الشَّايِ إِلَى مَكَانِهَا، وَنَهَضَ لِمُوَاصَلَةِ عَمَلِهِ، وَبَعْدَ مُرُوْرِ فَتْرَةٍ طَوِيْلَةٍ قَضَاهَا فِي العَمَلِ الدَّؤُوْبِ سَمِعَ (مارتن) بُكَاءَ طِفْلٍ رَضِيْعٍ، فَنَظَرَ مِنَ النَّافِذَةِ، فَرَأَى امْرَأَةً فَقِيْرَةً عَلَيْهَا أَسْمَالٌ بَالِيَةٌ، تَحْمِلُ طِفْلاً رَضِيْعاً أَخَذَ يَبْكِي بِشِدَّةٍ وَهِيَ تُحَاوِلُ أَنْ تَقِيَهُ شَرَّ الرِّيْحِ العَاتِيَةِ، رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعَهَا أَيُّ شَالٍ صُوْفِيٍّ لِتَلُفَّهُ بِهِ.
وَعِنْدَ رُؤْيَةِ ذَلِكَ المَشْهَدِ نَهَضَ (مارتن) مِنْ مَكَانِهِ، وَتَوَجَّهَ نَحْوَ البَابِ، ثُمَّ نَادَى تِلْكَ المَرْأَةَ قَائِلاً: "أَيَّتُهَا السَّيِّدَةُ، أَجَلْ أَنْتِ يَا سَيِّدَتِي!". فَالْتَفَتَتِ المَرْأَةُ نَحْوَهُ، فَخَاطَبَهَا قَائِلاً: "تَفَضَّلِي إِلَى مَنْزِلِي لِتَقِي نَفْسَكِ وَابْنَكِ مِنَ الرِّيْحِ وَالبَرْدِ، وَسَتَنْعُمِيْنَ بِالدِّفْءِ فِي الدَّاخِلِ".
فَدَخَلَتِ المَرْأَةُ إِلَى بَيْتِهِ وَهِيَ مُمْتَنَّةٌ لَهُ شَاكِرَةٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّ (مارتن) طَلَبَ مِنْهَا الجُلُوْسَ عَلَى المَقْعَدِ القَرِيْبِ مِنَ المِدْفَأَةِ، ثُمَّ وَضَعَ عَلَى الطَّاوِلَةِ أَمَامَهَا بَعْضَ الخُبْزِ وَالحِسَاءِ لِتَتَنَاوَلَهُ عَشَاءً لَهَا.
ثُمَّ خَاطَبَهَا بِقَوْلِهِ: "اجْلِسِي هُنَا يَا سَيِّدَتِي، وَتَنَاوَلِي طَعَامَكِ، وَسَأَعْتَنِي أَنَا بِصَغِيْرِكِ".





وَحِيْنَمَا رَأَى (مارتن) المَرْأَةَ وَهِيَ تَرْتَجِفُ مِنَ البَرْدِ سَأَلَهَا: "أَلَيْسَ لَدَيْكِ مِنَ الثِّيَابِ مَا يُدَفِّئُكِ؟" فَرَدَّتِ المَرْأَةُ الفَقِيْرَةُ بِقَوْلِهَا: "لَقَدْ رَهَنْتُ شَالِيَ البَارِحَةَ مُقَابِلَ حُصُوْلِي عَلَى قِطْعَةٍ نَقْدِيَّةٍ مِنْ فِئَةِ سِتَّةِ دَرَاهِمَ".

وَبَيْنَمَا كَانَتْ تِلْكَ المَرْأَةُ تَتَنَاوَلُ طَعَامَهَا، كَانَ (مارتن) يَعْتَنِي بِطِفْلِهَا وَيَحْمِلُهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ، ثُمَّ أَخَذَ يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ مَا كَانَ قَدْ عَلَّقَهُ عَلَى الجِدَارِ، بَعْدَ ذَلِكَ عَادَ وَهُوَ يَحْمِلُ رِدَاءً قَدِيْماً، وَقَدَّمَهُ لِلْمَرْأَةِ المِسْكِيْنَةِ الَّتِي نَظَرَتْ إِلَى الرِّدَاءِ، ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَى الرَّجُلِ العَجُوْزِ، وَأَخَذَتْهُ مِنْ يَدِهِ، ثُمَّ انْفَجَرَتْ بَاكِيَةً، فَابْتَعَدَ عَنْهَا (مارتن)، وَمَضَى يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ آخَرَ فِي الصُّنْدُوْقِ الصَّغِيْرِ الَّذِي يَمْتَلِكُهُ، بَعْدَ ذَلِكَ جَلَسَ قُبَالَةَ المَرْأَةِ، وَقَالَ لَهَا: "خُذِي هَذِهِ أَيْضاً" وَأَعْطَاهَا قِطْعَةً نَقْدِيَّةً مِنْ فِئَةِ سِتَّةِ دَرَاهِمَ؛



لِتَسْتَعِيدَ شَالَهَا مِنَ الشَّخْصِ الَّذِي أَقْرَضَهَا المَالَ بِرَهْنٍ، فَشَكَرَتْهُ تِلْكَ المَرْأَةُ مِنْ كُلِّ قَلْبِهَا، وَوَدَّعَتْهُ، ثُمَّ مَضَتْ.

وَحِينَمَا حَلَّ وَقْتُ الغُرُوبِ أَخَذَ (مارتن) يُرَتِّبُ أَدَوَاتِهِ فِي أَمَاكِنِهَا بَعْدَ يَوْمِ عَمَلٍ طَوِيلٍ، ثُمَّ كَنَسَ القُصَاصَاتِ الجِلْدِيَّةَ المُتَنَاثِرَةَ هُنَا وَهُنَاكَ، بَعْدَهَا حَمَلَ مِصْبَاحَهُ، وَوَضَعَهُ عَلَى الطَّاوِلَةِ، وَفَتَحَ الكِتَابَ المُقَدَّسَ، فَخَطَرَ بِبَالِهِ المَنَامُ الَّذِي رَآهُ اللَّيْلَةَ الفَائِتَةَ، وَلَمْ يَمْضِ عَلَيْهِ وَقْتٌ طَوِيلٌ وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي ذَلِكَ حَتَّى سَمِعَ وَقْعَ خُطُوَاتٍ خَلْفَهُ، فَالْتَفَتَ إِلَى مَصْدَرِ الصَّوْتِ وَأَخَذَ يُحَدِّقُ فِي الزَّاوِيَةِ المُظْلِمَةِ، فَخُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَرَى أَشْخَاصاً يَقِفُونَ هُنَاكَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتَبَيَّنْ هُوِيَّتَهُمْ.

عِنْدَ ذَلِكَ هَمَسَ صَوْتٌ فِي أُذُنِهِ قَائِلاً: "أَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا (مارتن)؟"

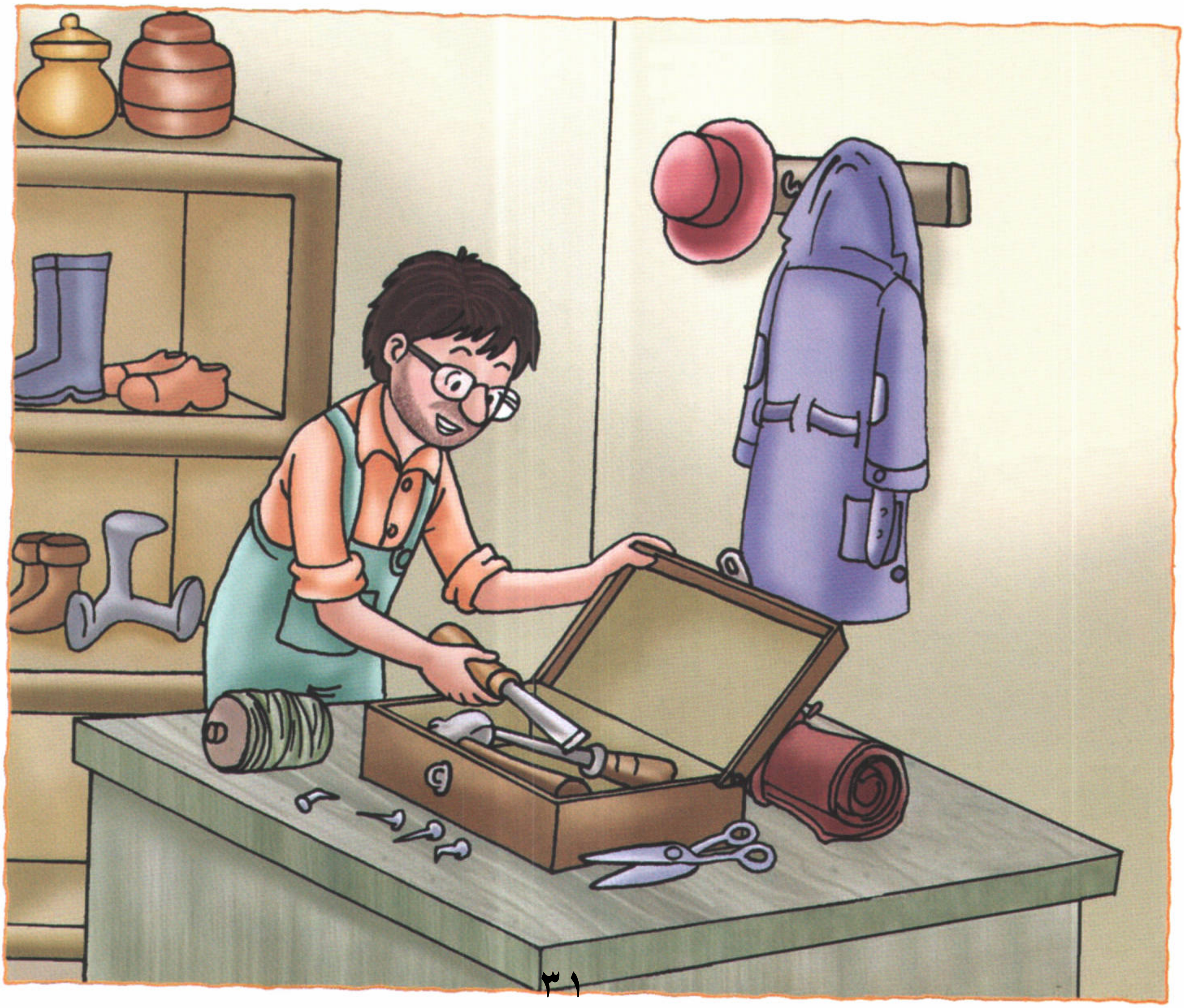
فَتَمْتَمَ (مارتن): "مَنْ أَنْتَ؟"

أَجَابَ الصَّوْتُ: "هَذَا أَنَا"، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الزَّاوِيَةِ المُعْتِمَةِ ذَلِكَ الرَّجُلُ العَجُوزُ الَّذِي اسْتَضَافَهُ (مارتن)،

وَقدَّمَ لَهُ الشَّايَ الَّذي جعَلَ الدِّفْءَ يَسْرِي في أَوْصالِهِ، بَعْدَ ذَلِكَ هَتَفَ صَوْتٌ آخرُ: "هَذِهِ أَنَا"، ثُمَّ خَرَجَتِ المَرْأَةُ الَّتِي كَانَتْ تَحْمِلُ طِفْلاً بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا، فَابْتَسَمَتْ لَهُ، وَضَحِكَ طِفْلُهَا فِي وَجْهِ (مارتن)، وَمِنْ ثَمَّ إِخْتَفَوْا جَمِيْعاً.

وَهُنَا غَمَرَتِ السَّعَادَةُ قَلْبَ (مارتن)، فَأَخَذَ يَقْرَأُ مِنَ الكِتَابِ المُقَدَّسِ عِنْدَ الصَّفْحَةِ الَّتِي كَانَتْ مَفْتُوْحَةً فِي ذَلِكَ الحِيْنِ، وَتَبْدَأُ بِـ: "كُنْتُ جَائِعاً فَأَطْعَمْتُمُوْنِي، وَعَطْشَانَ فَسَقَيْتُمُوْنِي، كُنْتُ غَرِيْباً فَآوَيْتُمُوْنِي، فَكُلُّ مَا فَعَلْتُمُوْهُ بِإِخْوَتِي هَؤُلَاءِ فَبِي فَعَلْتُمُوْهُ".

وَهَكَذَا أَدْرَكَ (مارتن) أَنَّ حُلُمَهُ قَدْ تَحَقَّقَ، وَأَنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ قَدْ زَارَهُ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ، وَبِأَنَّهُ أَكْرَمَهُ، وَأَحْسَنَ وِفَادَتَهُ.



حِكَايَةُ الذِّئْبِ مَعَ طَائِرِ الكُرْكِيِّ

بَعْدَ أَيَّامٍ طَوِيْلَةٍ مِنَ الجُوْعِ تَمَكَّنَ الذِّئْبُ مِنَ الحُصُوْلِ عَلَى بَعْضِ الطَّعَامِ، وَقَدْ دَفَعَهُ جُوعُهُ الشَّدِيْدُ إِلَى الْتِهَامِ طَعَامِهِ بِعَجَلَةٍ، مِمَّا سَبَّبَ لَهُ مُشْكِلَةً، فَقَدْ عَلِقَ عَظْمٌ صَغِيْرٌ دَاخِلَ حَلْقِهِ.

وَبَيْنَمَا كَانَ الذِّئْبُ يَسْعُلُ وَهُوَ يَكَادُ يَخْتَنِقُ، وَيُفَكِّرُ فِي طَرِيْقَةٍ لِإِخْرَاجِ ذَلِكَ العَظْمِ اللَّعِيْنِ، مَرَّ طَائِرُ كُرْكِيٍّ مُصَادَفَةً فِي ذَلِكَ المَكَانِ، فَصَاحَ بِهِ الذِّئْبُ وَهُوَ لَا يَكَادُ يَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ قَائِلاً: "أَنْتَ وَحْدَكَ مَنْ يَسْتَطِيْعُ إِنْقَاذِي بِفَضْلِ مِنْقَارِكَ الطَّوِيْلِ، وَلَأُكَافِئَنَّكَ مُكَافَأَةً كَبِيْرَةً عَلَى صَنِيْعِكَ إِنْ تَمَكَّنْتَ مِنْ فِعْلِ ذَلِكَ".

فَوَافَقَ طَائِرُ الكُرْكِيِّ عَلَى ذَلِكَ مُقَابِلَ المُكَافَأَةِ الَّتِي وَعَدَهُ الذِّئْبُ بِهَا، ثُمَّ أَدْخَلَ الطَّائِرُ مِنْقَارَهُ الطَّوِيْلَ دَاخِلَ حَلْقِ الذِّئْبِ، وَأَخْرَجَ العَظْمَ بِحَذَرٍ شَدِيْدٍ.

وَلَكِنْ حِيْنَمَا طَالَبَ الطَّائِرُ بِمُكَافَأَتِهِ تَنَصَّلَ الذِّئْبُ المَكَّارُ مِنْ كُلِّ وُعُوْدِهِ، وَقَالَ لَهُ دُوْنَ أَدْنَى شُعُوْرٍ بِالامْتِنَانِ أَوِ الفَضْلِ: "احْمَدِ اللهَ أَنِّي لَمْ أَقْضِمْ رَأْسَكَ وَأَنْتَ تُخْرِجُ العَظْمَ، لِذَا عَلَيْكَ أَنْ تَعُدَّ عَدَمَ فِعْلِي ذَلِكَ، وَإِبْقَائِي عَلَى حَيَاتِكَ هُوَ مُكَافَأَتَكَ الَّتِي وَعَدْتُكَ بِهَا".

لَابُدَّ أَنَّكَ عَزِيْزِي القَارِئَ تَقُوْلُ فِي سِرِّكَ: "يَا لَهُ مِنْ ذِئْبٍ مُحْتَالٍ وَجَحُوْدٍ!"، وَأَنْتَ مُحِقٌّ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الذِّئْبَ لَمْ يَفِ بِمَا وَعَدَ بِهِ، وَفِي ذَلِكَ ظُلْمٌ كَبِيْرٌ لِلطَّائِرِ، فَمُعْظَمُ النَّاسِ يَنْتَظِرُوْنَ شُكْراً، أَوْ مُقَابِلاً مَادِّيّاً، أَوْ مَعْنَوِيّاً حِيْنَمَا يُسْدُوْنَ مَعْرُوْفاً إِلَى شَخْصٍ مَا، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّنَا لَا نُقَدِّمُ خِدْمَاتِنَا مَجَّاناً، بَيْدَ أَنَّ حُبَّ الخَيْرِ يُحَتِّمُ عَلَيْنَا أَنْ نَخْدِمَ الآخَرِيْنَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَيْنَا، فَمُسَاعَدَةُ الآخَرِيْنَ هِيَ التَّصَرُّفُ الإِنْسَانِيُّ السَّلِيْمُ.

إِلَّا أَنَّ الذِّئْبَ لَمْ يَكُنْ مُنْصِفاً حِيْنَمَا قَالَ لِلطَّائِرِ إِنَّ إِبْقَاءَهُ عَلَى حَيَاتِهِ هُوَ مُكَافَأَتُهُ، وَقَدْ أَخْطَأَ الطَّائِرُ أَيْضاً حِيْنَمَا دَفَعَهُ إِلَى التَّصَرُّفِ بِنُبْلٍ مَعَ الذِّئْبِ الطَّمَعُ فِي الحُصُوْلِ عَلَى المُكَافَأَةِ فَقَطْ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَابُدَّ مِنْ فِعْلِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ لِأَنَّ فِعْلَهَا، وَالمُوَاظَبَةَ عَلَيْهَا هُوَ أَكْبَرُ مُكَافَأَةٍ لَنَا.

